

جنائز ايمماتوف

القلب الأبلق الرائض على حافة البحر



ترجمة: عاطف أبو حمرة

HAMDAN.B
24/07/09

القلب الأملق
الرائض على حافة البحر

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الاولى ١٩٨٨
العربي للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق: ص. ب ١٢٧٧٩

جنيزايماتوف

القلب الأبلق
الرائض على حافة البحر

ترجمة: عاطف أبو حمرة

١٩٨٨ / ٢ / ٢٠٠٠

طبع في مطابع دار العلم
التنضيد الضوئي :
مكتب الفيحاء - دمشق

التوزيع
في المنطقة الشمالية والشرقية
دار مكتبة سومر
حلب - السلمانية

إلى فلاديمير سانغي

في ليلة حالكة من ليالي الساحل، مشبعة بالرياح المتطاير
والبرودة، كان الصراع الأبدي المعروف دائراً بين طبيعتين على ساحل
أوخونسكي، وعلى امتداد جبهة البحر واليابسة: اليابسة تعرقل حركة
البحر، والبحر لا يكل عن مهاجمة اليابسة.

في هذا الظلام كان البحر يهدر ويزمجر جاهداً، يهاجم ويتحطم
على الصخور، وكانت الأرض الصخرية الصلبة تهدر بتثاقل وهي تصد
ضربات البحر.

هكذا، منذ الخليقة الأولى، وهما في حالة المصادمة هذه. مذ
صار النهار يتبعه نهار والليل يتبعه ليل. وهكذا سيظلان ليل نهار، ما
بقيت الأرض والماء وإلى ابد الأبد.

ليل نهار. . .

وانطوت ليلة أخرى. انها الليلة التي تسبق الابحار. في تلك
الليلة لم ينم قط. لأول مرة في حياته لم ينم، ولأول مرة في حياته
يعرف الأرق. كان يتحرق رغبة لأن يبدأ النهار سريعاً، كي ينطلق في
اليم. كان يسمع وهو يضطجع على جلد فقمة صوت ارتعاش الأرض
بسبب ضربات البحر، ذلك الصوت الذي لا يكاد يلتقط، وهو صوت

هدير الامواج واصطخابها في الخليج . لم ينم ، بل ظل ينتصت إلى
جلبة الليل .

ذات يوم كانت الأمور تجري على نحو آخر، أما الآن فلا يمكن
تصور ذلك، بل ان احداً لا يستطيع ان يعرف ذلك الآن، بل لا
يستطيع ان يحزر انه لولا وجود البطة لوفر في تلك الغابرة، لكان العالم
قد تكون بشكل آخر تماماً ولما قاومت اليابسة الماء، ولما قاوم الماء
اليابسة. اذ انه في البداية - في بداية كل البدايات - لم تكن الأرض
موجودة في الطبيعة، ولا حتى ذرة غبار واحدة. في كل مكان كانت
تنبسط المياه ولا شيء غير المياه. لقد انبثق الماء من نفسه في
دواماته، في اللجج السوداء والهوى الهائلة. كانت الامواج تندرج اثر
الامواج، وتنتشر في كل ارجاء الدنيا الشاسعة، التي كانت تبدأ آنذاك
من لا بداية وتنتهي في لا نهاية.

أما البطة لوفر، أجل، هي ذاتها تلك البطة العادية البطباطة،
ذات المنقار العريض التي تحلق حتى يومنا هذا فوق رؤوسنا في
اسراب كبيرة، فقد كانت في ذلك الزمان تحلق فوق العالم واحدة
وحيدة، دون ان تجد مكاناً لتضع فيه بيضتها. لم يكن يوجد في العالم
كله شيء سوى الماء، حتى ولا قشة واحدة لتبني منها عشاً.

كانت البطة لوفر تحلق وهي تبطبط بصوت عال - كانت تخشى
الا تحتمل - فتسقط البيضة في لجة لا قرار لها. واينما اتجهت البطة
لوفر وأتى طارت، كانت تتلاطم تحت جناحيها الامواج، ويمتد حولها
الماء العظيم - ماء بلا شطآن، بلا بداية ولا نهاية. وانهك التعب البطة
فاستسلمت مقتنعة: لم يكن في العالم كله مكان تبني فيه عشها.

عندئذ حطت البطة لوفر على الماء ونزعت من صدرها ريشة
ونسجت منها عشاً. من هذا العش الطافي على وجه الماء بدأت

الأرض بالتكون. وشيئاً فشيئاً توسعت الأرض، وشيئاً فشيئاً صارت تؤمها المخلوقات المختلفة. الانسان فاق كل هذه المخلوقات، تكيف مع الثلج اذ استخدم الزحافات، ومع الماء اذ صار يبحر في القوارب، صار يصطاد الحيوان ويصطاد الاسماك، فيتغذى بها ويزيد من نسله. ليت البطة لو فر كانت تعلم فقط كم ستكون الأمور صعبة في الكون، بعد ظهور اليابسة وسط مملكة المياه اللامتناهية. فمنذ ظهرت الأرض لم يعد البحر قادراً على الهدوء. منذ ذلك الحين والبحر يقارع اليابسة واليابسة تقارع البحر. وحياناً يقع الانسان في وضع محرج بينهما - بين اليابسة والبحر، بين البحر واليابسة. فالبحر لا يحبه لانه اشد تعلقاً بالأرض...

اقترب الصباح وانصرمت ليلة أخرى، وولد نهار جديد. في الشفق الشاحب المتماثل نحو السطوع كان يتوضح شيئاً فشيئاً التقاء البحر مع الشاطيء كشفة أيل وسط سحابة الزفير الزرقاء. كان البحر يتنفس. وعلى طول خط الالتقاء الصاخب بين اليابسة والبحر كانت تتصاعد سحابة الرذاذ البارد المتطاير، وعلى خط الشاطيء، على امتداده كله كان، يدوي هدير تلاطم الامواج العنيد.

كانت الامواج مصرة ملحاحة: موجة تلو موجة كانت تتسارع صاعدة إلى الأعلى بقوة على فراش الصقيع البارد القاسي الذي يغطي الرمال لمهاجمة اليابسة، إلى الأعلى عبر اكوام الحجارة السمراء الملساء، إلى الأعلى - وبقدر ما اوتيت من قوة واتساع. لكن الامواج كانت تلفظ انفاسها واحدة اثر اخرى كزفرة، عند الحد الاخير لانتشار المياه المتناثرة، مخلقة وراءها للحظة زبداً ورائحة عفنة منبعثة من تحريكها للاعشاب البحرية.

واحياناً يقذف مع الامواج على الشاطيء حطام الكتل

الجليدية، الذي حملته تحركات المحيط الربيعية من مكان ما مجهول. وتتحول قطع الجليد المبعثرة على الرمال فوراً إلى قطع بلهاء ضعيفة من البحر المتجمد، ثم تعود الامواج المتلاحقة بسرعة إلى البحر وتحمل معها قطع الجليد لتبقيها عرضة لعبثها.

زال الظلام، وازداد النور المنسكب في الصباح، وصارت تتوضح بالتدرج ملامح الارض، وبدأ يظهر البحر.

وتستمر الامواج التي اثارتها رياح الليل، مزبدة عند الشواطئ، على شكل سلاسل من الذؤابات البيضاء، أما في العمق، في البعيد التائه، فقد كان البحر يهدأ مسالماً متلاًثاً، رصاصي اللون، ومتماوجاً بتناقل في ذلك الطرف.

كانت الغيوم تزحف من البحر، مقتربة من مرتفعات الشاطيء. في هذا المكان، بالقرب من خليج الكلب الابلق، وفي شبه الجزيرة الجبلية التي تبرز في البحر بشكل منحرف ترتفع بارزة شاهقة الصخرة - الجبل، التي تذكر في الواقع، وعن بعد، بكلب ابلق راكض إلى حاجته على حافة البحر. ان جبل الكلب الابلق الذي يحتفظ على رأسه، حتى في اشد ايام الصيف حرارة، ببقعة بيضاء من الثلج، تشبه اذنأً ضخمة متدلّية، ويحتفظ ببقعة بيضاء كبيرة اخرى في منطقة العانة - في المنخفض الظليل، هذا الجبل كان يرى دائماً من بعد ومن مختلف الجهات: من البحر ومن الغابة.

من هنا، من خليج الكلب الابلق، ابحر في الصباح، وعندما اصبحت الشمس على ارتفاع شجرتي حور، قارب النيفيين. كان في القارب ثلاثة صيادين ومعهم صبي. الرجلان الاكثر شباباً وقوة كانا يجذفان باربعة مجاذيف، وفي المؤخرة جلس أكبرهم وهو يوجه الدفة ويدخن بوقار غليونه الخشبي. كان وجهه بني اللون. كان شيخاً نحيلاً

بارز الحنجرة كثير التجاعيد وخاصة على رقبة، فكلها محززة باخايد عميقة. اما اليدان فقد كانتا ضخمتين معقدتي المفاصل، مغطتين بالشقوق والندوب، كان اشيب الشعر، رأسه ابيض تقريباً، وعلى وجهه البني كان يبرز حاجباه الابيضان. كان العجوز يزر عينيه الدماعتين الحمراءوين. لانه كان طوال حياته ينظر إلى سطح الماء الذي يعكس اشعة الشمس، حتى ليخيل للمرء انه كان يقود قاربه في الخليج دونما رؤية. وفي مقدمة القارب اتخذ صبي اسود العينين، في الحادية أو الثانية عشر من عمره، مكانه مثل طائر الكروان وقد تثبت بمكانه بصعوبة كبيرة، كي لا يتحرك كثيراً وكي لا يثير استياء الشيخ العابس، وكان احياناً يلقي نظرات خاطفة إلى هؤلاء الرجال الكبار.

كان الصبي خائفاً، منخراه يتنفخان بمرونة، لشدة الاضطراب وقد ظهر على وجهه نمش خفي. لقد ورث هذا عن امه. فقد كان يظهر على وجهها، عندما تفرح، مثل هذا النمش الخفي. لقد كان هناك ما يقلق الصبي. كان هذا الخروج إلى عرض البحر مكرماً له ولدخوله عالم الصيد. لذلك كان كيريسك يتلفت إلى الجانبين كالكروان، وينظر إلى كل مكان باهتمام وفراغ صبر متزايدين. لأول مرة في حياته ينطلق كيريسك إلى عرض البحر مع صيادين حقيقيين، إلى صيد حقيقي كبير، وعلى قارب كبير عريق. كان الصبي يتحرق شوقاً لأن ينهض من مكانه، وان يستعجل المجذفين، كان يريد ان يمسك هو بالمجذاف وان يجذف بكل ما أوتي من قوة كي يصل سريعاً إلى تلك الجزر، حيث كان صيد عظيم للحيوان البحري. لكن هذه الرغبات الطفولية كان يمكن ان تلبو مضحكة بالنسبة لاناس جديين. وخوفاً من هذا كان يبذل كل جهده كي لا يفتضح امره. لكنه لم يوفق كلياً في ذلك، فقد كان من الصعب عليه اخفاء سعاده، اذ ظهر التورد

البحر واضحاً على وجنتيه السمراوين الصلبتين . الا هم من كل ذلك هو عيناه البراقتان الصافيتان، عينا الشباب النهمتان، اثنان لم تتمكنوا من كتمان الفرح والفخار اللذين يملآن روحه المبتهجا . فامامه البحر وفي انتظاره الصيد العظيم .

كان العجوز اورغان يفهمه . فمع انه كان يراقب من خلال شق عينيه الاتجاه في البحر، كان يلاحظ مزاج الصبي، الذي يكاد يقفز لفراغ صبره . ورقت عينا العجوز - ايه ايتها الطفولة - لكنه حبس البسمة المتكونة عند زوايتي فمه الضامر، اذ سحب نفساً عميقاً من غليونه شبه المنطفيء . لم يكن من الجائز كشف الابتسامة . فلم يركب الصبي معهم القارب للتسلية . ان عليه ان يبدأ حياة الصياد البحري، ان يبدأها كي ينتهيا في يوم من الأيام في البحر - هذا هو قدر صياد البحر - اذ ليس في العالم عمل اصعب واخطر من الاصطياد في البحر . عليه ان يعتاد منذ نعومة اظفاره لأن الأقدمين قالوا: «الذكاء من السماء والمهارة من الصغر» . وقالوا أيضاً: «الصيد السيء عبء على القبيلة» . من هنا ينتج: لكي يكون الرجل معيلاً، عليه ان يتمرس في مهنته منذ الصغر .

والآن جاء دور كيريسك لهذا . ان الآوان لتدريب الصبي وتعويده على البحر .

الكل يعرف هذا . كل سلالة السمكة - المرأة، عند جبل الكلب الابلق، كانت تعرف ان ابغار اليوم قد كرس له، لكيريسك صياد ومجبل المستقبل . هذا هو المكتوب: كل من يولد ذكراً يتأخر مع البحر منذ صغره، لكي يعرفه البحر، ولكي يحترم هو البحر لذلك خرج إلى البحر عميد الاسرة الشيخ أورغان بنفسه، ومعه اثنان من افضل الصيادين: والد الصبي امرايين وابن عم الوالد ميلغون، اذعانا

للوالب المفروض على الكبار تجاه الصغار. وفي هذه المرة تجاهه،
تجاه الصبي كيريسك، الذي اصبح عليه من الآن فصاعداً ان يتعرف
على البحر، وان يلاقي من الآن فصاعداً ايام نجاح وايام اخفاق.
ليكن كيريسك الآن طفلاً، وليكن الحليب عالقاً الآن على
شفتيه، وليكن غير مؤكد ان كان سيعطي منفعة أم لا، إلا ان احداً لا
يستطيع الجزم الآن انه عندما سيتخلون هم عن العمل، اذ يصبحون
مسنين عجزة، سيكون كيريسك بالذات معيل وسند الاسرة. هذا هو
المفروض، وهكذا تسير الأمور بين الاجيال، ومن جيل إلى جيل،
وعلى هذا تقوم الحياة.

بيد انه ما من أحد يجهر بذلك. فالانسان يفكر بذلك بينه وبين
ذاته، ولا يتكلم عن ذلك إلا ما ندر. لهذا السبب لم يعر أحد من ابناء
السمكة - المرأة، هنا على شواطئ الكلب الابلق، أي اهتمام لهذا
الحدث - أول خروج لكيريسك إلى الصيد. بل على العكس، فقد
حاول ابناء اسرته عدم ملاحظة خروجه إلى البحر مع الصيادين الكبار،
وكانهم لم يحملوا هذا محمل الجد.

رافقتة امه وحدها، ولكنها لم تجهر بآية كلمة عن هذه الرحلة
المزعمة وودعته دون ان تصل إلى الخليج. «هيا اذهب إلى الغابة»..
قالت هذا لابنها وبشكل تظاهري وواضح، دون ان تنظر إلى البحر،
بل وهي تنظر إلى الغابة: «انتبه، يجب ان يكون الحطب جافاً، واياك
ان تضع في الغابة». قالت هذا لكي تموه الآثار ولكي تحمي ابنها من
الارواح الشريرة. أما عن الأب فلم تنبس الأم ببنت شفة، وكان امرائين
لم يكن الوالد، وكان كيريسك ينطلق إلى البحر مع اناس غرباء
عرضيين، وليس مع والده. وصمتت ايضاً لكي لا تعرف الارواح
الشريرة ان امرائين وكيريسك هما اب وابن. فالارواح الشريرة تكره

الاباء والابناء عندما يكونون معاً في الصيد . وقد تقتل احدهما كي يفقد الآخر قوته وارادته، وكي يقسم، لشدة المه، ألا يخرج إلى البحر، وألا يدخل غابة . تلك هي الارواح الشريرة الماكرة: تترقبهم وترصدهم لكي توقع بهم الشر والأذى .

كيريسك نفسه لا يخاف الارواح الشريرة، فهو لم يعد صغيراً، لكن امه تخاف وخاصة عليه، وتقول: انت لا تزال صغيراً، ومن السهل افقائك الرشد واهلاكك . هذا صحيح ! آه . من هذه الارواح الشريرة، كم تجلب من المصائب في سن الطفولة: الأمراض المختلفة واشكال الأذى الأخرى: تشوه الطفل كي لا يصبح صياداً، وعندها لن ينفع هذا الانسان لشيء لذلك من المهم جداً الاحتراس من الارواح الشريرة، وخاصة في الصغر، ريثما يكبر . وعندما يقف الانسان على قدميه، عندما يصبح مستقلاً، عندها لن تخيفه اية ارواح، فهي لن تستطيع ان تسيطر عليه لانها تهاب الاقوياء .

وهكذا افرقت الأم مع ابنها . الأم وقفت صامته، مخفية في هذا الصمت الخوف والدعاء والأمل . واستدارت عائدة دون ان تلتفت مرة واحدة إلى البحر، ودون ان تنبس بكلمة واحدة عن الاب وكأنها فعلاً لا تعرف إلى اين يتوجه زوجها وابنها، مع انها، هي نفسها التي جهزت لهما عدة الطريق عشية الرحيل، فقد اعدت لهما الزاد لثلاثة أيام من الابحار، والآن تتظاهر بانها لا تعرف شيئاً لشدة خوفها على ولدها . كانت تخاف عليه لدرجة انها لم تفض بوساوسها مطلقاً، كي لا تكتشف الارواح الشريرة الفزع الذي في صدرها .

وعادت الأم قبل ان تبلغ الخليج . أما الابن فقد جرى ليلحق بالرجال الذين سبقوه بعيداً، محوماً بين الشجيرات ليضنع الآثار وليتستر عن الارواح الشريرة غير المرئية - كما اوصلته أمه - فلم يشأ ان

يغضبها في يوم كهذا .

وسرعان ما ادركهم . كانوا يسيرون دونما اسراع ، وهم يحملون على اكتافهم الحمولة والبنادق «الوينشستر» والحبال . في المقدمة كان يسير العميد أورغان ، ليتبعه امرائين ، عريض الكتفين ملتحياناً ، متميزاً بضخامة قامته وطولها . وخلفهما كان يمشي ميلغون مشية اعوج القدمين ، قصيراً ، قوياً ، مكوراً كأرومة . ثيابهم كانت رثة مخصصة للبحر ، مصنوعة باكملها من الفراء والجلود المدبوغة الطرية ، لكي تحفظ الدفء وتمنع الرطوبة . أما كيريسك فقد بدا بالمقارنة معهم انيقاً - لقد بذلت أمه جهدها وجهزت له منذ وقت طويل ملابس البحر : فالجزمة والثياب الخارجية كلها كانت مطرزة على اطرافها . ما ضرورة هذا في البحر؟ لكن الأم تظل أمّاً .

- اوه ، لقد ظننا انك بقيت هناك . ظننا انهم اقتادوك من يدك إلى البيت . قال ميلغون هذا باستهجان وسخرية ، عندما اصبح كيريسك بمحاذاتهم .

- لم هذا؟ لن يحدث مثل هذا في العمر كله ! أنا . . كان كيريسك يغص بالكلام بسبب هذه الالهانة .

- ايه ، ايه ، الا تفهم المزاح؟ اسكته ذاك وتابع : كف عن هذا . مع من سنتحدث في البحر اذا لم نتحدث مع بعضنا؟ هاك احمل ، هذا أحسن ، واعطاه بندقيته . فغذ الصبي الخطوب بمحاذاته شاكراً .

بقي عليهم ان يركبوا وينطلقوا

هكذا خرجوا إلى البحر . إلا ان العودة - اذا حالفهم الحظ وعادوا إلى بيتهم بصيد وفير - ستكون على نحو آخر . عندها سيسبغون على الصبي شرفاً جديراً به . سيقام عيد لاستقبال الصياد الصغير وستغنى الاغاني عن كرم البحر ، الذي تتكاثر في اعماقه الرحبة

الاسماك والحيوانات المخصصة للصيادين الاقوياء الجسورين .
سيمجدون في الاغاني السمكة - المرأة - الجدة التي انجبتهم . فهم
ابناء السمكة - المرأة على الأرض . عندها ستدوي الطبول تحت
ضربات العصي ، وبين الراقصين سيجري الولي - اكثر الناس حكمة -
حواراً مع الأرض والماء ، حواراً حولها ، حول كيريسك - الصياد
الجديد . أجل ، أجل ، عنه سيتحدث الولي مع الأرض والماء .
سيرجوها ويتضرع اليهما لتكونا - الأرض والماء - دائماً طبيبتين معه ،
لكي يصبح عندما يكبر صياداً عظيماً ، لكي يلازمه للتوفيق دائماً وابدأ ،
على الأرض وعلى الماء ، لكي يقدر له دائماً ان يقسم صيده بين الكبار
والصغار بكل انصاف ، وسيرجوها الولي العاقل جداً وسيتضرع اليهما
كي ينجب كيريسك اطفالاً ، يعيشون كلهم ، لكي يتكاثر نسل
السمكة - المرأة ، وكي يضاف إلى الخلف خلف :

اين تسبحين ايتها السمكة المرأة العظيمة؟

احشاؤك الحارة - تبعث الحياة .

احشاؤك الحارة - ولدتنا عند البحر .

احشاؤك الحارة - افضل مكان في الكون .

اين تسبحين ايتها السمكة - المرأة العظيمة؟

انداؤك البيضاء كرؤوس الفقعات .

انداؤك البيضاء ارضعتنا عند البحر .

اين تسبحين ايتها السمكة - المرأة العظيمة؟

اليك سيسبح اقوى الرجال .

لكي تزهر احشاؤك ،

لكي يتكاثر نسلك على الأرض .

تلك هي الاغاني التي سنتشد وسط الرقص والضوضاء . حدث

هام آخر ينتظر كيريسك في هذا العيد. فالولي سيعهد - اثناء رقصه الجنوني - بمصيره، كصياد، إلى احدى نجوم السماء. فلكل صياد نجمته الحامية. أما النجمة التي سيعهد اليها بمصير كيريسك فلن يعرفها احد ابداً. الولي نفسه والنجمة الحامية، غير الملحوظة، سيعرفان ذلك فقط، ولا أحد غيرهما. والنجوم في السماء كثيرة.

من المؤكد ان الأم والأخت الصغيرة ستتهجان اكثر من الآخرين، وستغنيان بصوت أعلى من كل الاصوات وسترقصان بشكل اعنف من الجميع. أما الاب امرأين فسيدعي اباً على الملأ، وسيكون سعيداً وفخوراً. ولكنه الآن ليس اباه. ليس في البحر ثمة آباء وابناء، الكل في البحر متساوون ويخضعون للاكبر سنًا. مشيئة الأكبر هي النافذة، ولن يتدخل الاب، ولن يشتكي الابن لايه - ذلك هو العرف.

ثم ان الفتاة الصغيرة موزلوك، التي كان يلعب معها، عندما كانا طفلين، ستفرح جداً. لعبهما الآن قد قل. فمنذ الآن لا وقت لدى الصياد للعب



وسار القارب برشاقة وهو يغوص احياناً بعض الشيء في الامواج. لقد اصبح خليج الكلب الابلق بعيداً في الخلف، وقد تجاوزوا كذلك رأس «الطويل». عند خروجهم إلى عرض البحر من الخليج اكتشفوا ان الامواج في عرض البحر ليست اقوى مما هي عليه في الخليج. كانت الامواج تتدحرج بارتفاع واحد وفي برهات زمنية متماثلة. بمثل هذه الامواج المنتظمة يمكن الابحاء ابصاراً حسناً.

كان القارب الذي صنع من جذع شجرة حور ضخمة ينساب انسياباً سهلاً، وكان يسير سيراً واثقاً متصدياً للامواج التي تأتيه من

المقدمة أو من الجوانب، خاضعاً لتوجيهات المقود.

كان العجوز أورغان يشعر بالرضى لسير القارب الواثق، وهو يسحب انفاً من غليونه الذي كان قد انطلقاً تماماً، وكان يشعر في قرارة نفسه وكأنه هو نفسه يشق عباب البحر البارد وهو يغوص حتى نصفه في الماء، وكأنه هو نفسه كان يتحرك مخترقاً بخشبة المقدمة، وكأنها صدره بالذات، مرونة الامواج التي تواجهه، مهتزاً بعض الشيء من جراء ضربات ودفعات الماء. هذا الشعور بالاندماج الكامل مع حركة القارب خلق عنده افكاراً غريبة. كان راضياً عن القارب، بل راضياً جداً. فهو نفسه الذي كشطه وحفره. لقد تم قطع الشجرة بشكل جماعي، اذ ان هذا لم يكن بمقدور شخص واحد، لا بل اربعة اشخاص. أما هو فقد عمل بعد ذلك بمفرده. ثلاثة اصياف وهو يجفف وينحت الشجرة. عندها ادرك انه سيحصل على افضل قارب صنعته في حياته. عندما فكر بذلك غضب دونما ارادة منه: ماذا لو كان يحدث هذا للمرة الأخيرة؟ لو يعيش أكثر. لو يخرج ايضاً بحثاً عن الصيد في البحر. لو يصنع قاربين آخرين، مادام لا يزال يبصر وما دام لم يفقد حواسه بعد.

مع تفكيره هذا صار يناجي القارب: «انا احبك واثق بك، يا اخي القارب. انت تعرف لغة البحر وتعرف عادات الامواج، وهنا تكمن قوتك. انت قارب جيد، احسن القوارب كلها، التي صنعتها. انت قارب كبير تتسع لاسدين من اسود البحر وفقمة. انت تجلب لنا التوفيق، لهذا احترمك. كلنا نحبك عندما تثن تحت ثقل صيدنا، وانت عائد إلى الشاطئ تغوص في الماء حتى حوافك، بل تغرقه.

عندها الكل يندفعون إلى الشاطئ لاستقبالك، يا اخي القارب!
واذا مت انا، فاستمر في ابحارك طويلاً. ابحر بعيداً إلى مواطن

الصيد الغني . اذا مت فاسبح في البحر بالصيادين الشباب الاقوياء .
اذا مت فاخدمهم كما تخدمني . وعش ياخي القارب حتى ترى خلفنا
هذا، الذي يجلس هناك في المقدمة ويتلفت إلى كل الاتجاهات
فاقداً الصبر: لو لم يكن هذا ماء، بل عشباً، لركض الآن فوراً إلى
الصيد الكبير وقام بكل شيء بنفسه . هكذا يبدو له الأمر . عش حتى
تراه ياخي القارب قد شب وحتى تراه يبهر معك إلى القريب والبعيد .
أما اليوم فهو معنا في البحر لأول مرة . هذا ضروري . فليتعود . نحن
سنرحل أما هو فسيبقى سنوات طويلة . اذا شب شبيهاً بابيه امرائين
فسيكون انساناً عاقلاً، لا انساناً فارغاً دعياً . امرائين الاحسن بين
الصيادين الحاليين . شاب صلب العود وعملي . لقد كنت مثله ذات
يوم، بنفس القوة . كانت النساء اذ ذاك تحبني ، أما أنا فكنت اظن ان
العمر لا ينتهي . لكن الانسان لا يدرك ان الأمر ليس كذلك إلا في
وقت متأخر . الشباب لا يريدون ان يعرفوا ذلك . ها هما امرائين
وميلغون ، انهما على الاغلب لا يفكران بذلك بعد . فليكن .
سيعرفان . انهما يجذفان جيداً وبانسجام . ميلغون نداء امرائين . يالكما
من زوج جليد قوي . وكأن القارب يسير من ذاته مرحاً . لكن هذا مجرد
شعور، ففي البحر تسير بقوة يديك . مازال امامهما ان يجذفا ويجذفا
طوال اليوم كله، قل حتى الظلام، إلى ان نصل الضرع الثالث .
وغداً، من الصباح . . . وطوال النهار، سأحل محلهما، تارة محل هذا
وتارة محل ذاك . ولكن رغم ذلك فانه لعمل صعب ان تهزم ماء البحر
كله بالمجازيف . اذا عدنا بالصيد سنقيم عيداً .

اتسمعني؟ اتفهمني ياخي القارب؟ انت تحملنا إلى الجزر،
إلى الاضرع الثلاثة، إلى موطن الصيد الكبير، فمن أجل هذا نحن
نبحر . هناك على الشاطئ سنقابل الفقمة في المرابض . قريباً ستبدأ

الفقمة بالوضع، فتجتمع على الجزر قطعاناً قطعاناً.

اتفهمني ياخي القارب؟ انت تفهمني . لقد بدأت احديثك منذ كنت لا تعرف البحر بعد، عندما كنت لا تزال تعيش في احشاء شجرة الحور العظيمة في الغابة . لقد حررتك من جوف الشجرة، وها نحن الآن نبحر.

عندما سأفارق الحياة لا تنسني ياخي القارب . اذكرني عندما

ستسبح في البحر. . .

هكذا كان يفكر اورغان وهو يوجه القارب من نقطة العلام الرئيسية على الشاطيء، وهي جبل الكلب الابلق، وبخط مستقيم إلى عرض البحر. لقد كان لهذه الصخرة صفة متميزة، كان يتكلم عنها كل من يخرج إلى البحر، عندما تكون الرؤية جيدة، يبدو الجبل وكأنه يكبر كلما ازداد الابتعاد عنه، تماماً وكأن الكلب الابلق يعدو في الاثر، غير راغب في التخلف، فكيف ما تلفت ترى الكلب الابلق بارزاً. هذا الجبل يظل مرئياً إلى مسافة بعيدة، وفجأة يختفي دفعة واحدة خلف التحذب المائي . أي ان الكلب الابلق ذهب إلى بيته، وهذا يعني ان الأرض قد اصبحت بعيدة في الورا.

في تلك اللحظة يجب التذكر، والتذكر جيداً: اين وفي أية جهة بقي الكلب الابلق. يجب حفظ اتجاه الريح ومكان الشمس بالنسبة للجبل، تجب ملاحظة الغيوم، اذا كان الطقس هادئاً، ومراقبة البحر طوال الوقت، حتى الجزر، مع الاحتفاظ في الذاكرة بمكان الكلب الابلق لكي لا يضل المرء الطريق في هذه الامداء البحرية.

كانوا يتجهون إلى الجزر التي تبعد ما يقارب ابحار يوم واحد. تلك كانت جزراً صغيرة صخرية غير مأهولة - ثلاث قطع من اليابسة، تبرز كأثناء قاتمة وسط لا نهائية المياه. لذلك صارت تسمى الاضرع

الثلاثة: الضرع الاصغر والضرع الاوسط والضرع الاكبر. اذا ابهر المرء إلى ما بعدها، فان الطريق سيمتد إلى المحيط الذي لا حدود له، والذي لم يكونوا يعرفون اسمه، إلى الماء الازلي العظيم، المجهول، غير المطروق، الذي ينبثق بذاته من ذاته، والموجود منذ الخليقة، منذ ذلك الزمن الذي كانت تحوم فيه البطة لوفر ببطبتها باحثة عن بقعة صغيرة لتبني عليها عشاً، بقعة صلبة بمساحة الكف دون ان تجدها في الكون كله. هناك على تلك الجزر، على الحد الفاصل بين البحر والمحيط تقيم الفقمة مستوطناتها في ايام الربيع هذه. من اجل هذا كانوا يبحرون، من اجل هذا ينطلقون في ذلك الاتجاه.

كان الصبي مندهشاً لرؤية البحر على نحو آخر، غير ما كان يبدو له اثناء لعبه على منحدرات الكلب الابلق، بل على غير ما كان يبدو ابان التنزه على القارب في الخليج. لقد احس بهذا بشكل حاد عند خروجهم من الخليج، حينما اتسع البحر فجأة مائلاً المدى المنظور كله حتى السماء، و متحولاً إلى جوهر واحد متصل شاسع للعالم. لقد اذهل البحر المكشوف كيريسك. فهو لم يكن يتوقع مشهداً كهذا. لا شيء سوى الماء، ماء متموج ثقيل. لا شيء سوى الامواج، ترتفع فجأة ثم تتلاشى ببطء. لا شيء سوى العمق، عمق قاتم مخيف. لا شيء سوى السماء المزروعة بالغيوم البيضاء السارحة الخفيفة البعيدة. هذا هو العالم الجوهري كله، لا شيء اكثر من هذا ولا شيء غير هذا. لا شيء عدا هذا، عدا البحر نفسه، لا شتاء ولا صيف، لا جبال ولا وهاد.

الماء يفرش الكون من اقصاه إلى اقصاه.
والقارب يسبح غائصاً في الامواج كالسابق. لا يزال الوجود على

ظهر القارب انتظاراً للصيد الكبير امراً مصيرياً ومفرحاً للصبي . إلا ان كل ما رآه ولاحظه حوله - في الماء وفوق الماء - تلقاه في هذه المرة، بشكل لاه، قليل الانتباه. اذ ان روحه كانت منشغلة بكليتها وكانت تتحرق منتظرة انطباعات اخرى. لو كان الوقت غير هذا لاثارت اهتمامه لعبة الاشعة التي لا تنتهي على الماء، وهي تتراكم بشكل رائع على السطح راسمة صورة البحر، مزجة الالوان، من البنفسجي الرقيق والاخضر القاتم إلى الظلام الشديد في الظل خارج القارب، ولفج كثيراً بتلك الاسماك العجيبة المثيرة، التي ظهرت صدفة قرب القارب، ولضحك من اسماك سليمان، التي اصطدمت بتلك الاسماك صفاً متراصاً، وعضواً عن ان تتفرق، ازدادت - لشدة خوفها - تراصاً وصارت تقفز وتسقط على ظهرها بشكل مضحك بعد ان تتعلق في الهواء.

لم يعر كيريسك كل هذا اهتماماً خاصاً. انها سخافات. كان يتوق لشيء واحد فقط: الوصول سريعاً إلى الجزر، والبدء سريعاً بالعمل.

لكن سرعان ما تغير مزاج الصبي تغيراً عجبياً، مع انه لم يظهر هذا. فعندما ابتعدوا عن الأرض، خاصة بعد ان احتجب الكلب الابلق خلف الماء الاسود المحذب، بدأ الصبي يستشعر خطراً آتياً من البحر، وصار يحس بتبعيته الكلية للبحر، وبصغره اللانهائي وبضعفه الكبير تجاه الطبيعة العظيمة.

لقد كان هذا بالنسبة له جديداً. عندها فهم كم هو عزيز عليه الكلب الابلق، الذي لم يكن يتذكره البتة فيما مضى، وهو يلهو مطمئناً بلا اكتراث على سفوحه متأملاً من أعلى الجبل منظر البحر الذي لا يهدد بشيء، فقد ادرك كم كان الكلب الابلق طيباً وقوياً، كم كان

راسخاً وکلي القدرة في موقعه .

لقد ادرك الآن الفارق بين اليابسة والبحر . عندما تكون على الأرض لا تفكر بشيء ، أما في البحر فتفكر به . حتى لو كانت افكارك مشغولة بموضوع آخر . اقلق هذا الاكتشاف الصبي : ففي كون البحر يضطرك للتفكير به دائماً يكمن شيء ما خفي وراسخ ومسيطر .

كان الكبار هادئين . امرابين وميلغون كانا يجذفان كالسابق بتناغم ، ومرة بعد مرة يقذفان المجاذيف إلى ابعدهما يمكن ، ليعودا بعد ان ينشيا ويحنيا رأسيهما ، إلى الانتصاب بحركة رجل واحد ، فيعطيان القارب بخفة وحرية امكانية الحركة بسلسلة من الدفعات المنتظمة . المجاذيف الاربعة كانت تلمس الماء معاً ، وتبتعد عنه في نفس اللحظة . لكن هذا كان يتطلب من المجذفين جهداً مستمراً . لم يكن كيريسك يرى وجهيهما ، فقد كانا يديران اليه ظهريهما . لكنه كان يرى كيف كانت تتقلص ثم تنبسط اكتافهما . لم يتبادلا الحديث إلا نادراً . لكن الاب كان في الواقع يجد الوقت للالتفات والابتسام ، من خلال لحيته ، لابنه : «كيف؟» .

هكذا ابحروا . الكبار كانوا هادئين واثقين من انفسهم . الشيخ اورغان لم يكن لينزعج ابداً . كان يسحب انفاً من غليونه ويوجه القارب من مكانه . هكذا ابحروا ، كل واحد منهم مشغول بعمله . الواقع ان كيريسك حاول التجذيف مرتين : مرة مع ميلغون ومرة مع والده . كان المجذبان يتخليان له بسرور عن احد المجاذيف . فليعمل الصغير قليلاً . ومع انه كان يحرك المجذاف بكلتا يديه بصعوبة ، فان قوته لم تخدمه طويلاً . كان القارب ثقيلًا جداً بالنسبة له ، والمجاذيف كبيرة . لكن احداً لم يلمه على ذلك ولم يشفق عليه احد . بل كانوا يعملون بصمت . وعندما توارى الكلب الابلق عن النظر فجأة

انتابتهم، لسبب ما، الحيوية.

اعلن الوالد:

- لقد ذهب الكلب الابلق إلى البيت.

فأكد ميلغون:

- نعم، ذهب.

- حقاً؟ اذن ذهب. - قال العجوز أورغان هذا والتفت إلى ذلك

الاتجاه - مادام الأمر كذلك، فهذا يعني ان الأمور تسير. وتوجه إلى

الصبي مداعباً: ايه كيريسك، هلا ناديت الكلب الابلق، ربما يعود؟

ضحك الجميع وضحك كيريسك، ثم فكر وقال بصوت عال:

- اذن يجب ان نتجه إلى الورا، عندها سيعود.

واجابه اورغان متهكماً:

- يالك من نبيه. هيا الافضل ان نعمل، تعال الي، كفاك

حملقة، فلن ترى البحر كله.

ترك كيريسك مكانه في المقدمة واتجه نحو المؤخرة قافزاً فوق

الاشياء الموضوعة في قعر القارب: بندقيتا «وينشستر» ملفوفتان بجلد

الايل وحرية ولفة حبال وبرميل ماء وكيس المون وصرر أخرى وثياب.

حين وصل، وهو يجتاز القارب، إلى المجذفين، قافزاً فوق المجاذيف

شم رائحة العرق الرجولي القوية ورائحة التبغ المنبعثتين من الظهر

والرقاب. انها نفس رائحة البسة والده التي تحب أمه ان تنشقها،

عندما يكون الأب في البحر، اذ تأخذ السترة القديمة وتدفن وجهها

فيها.

وهز الاب لابنه رأسه، ودفعه بكتفه في خاصرته، دون ان يفلت

المجذاف من يده. لكن كيريسك لم يتوقف عند مداعبة والده

العفوية. شيء طريف. الجميع في البحر متساوون. ليس في البحر

ثمة آباء وابناء . في البحر يوجد الكبير فقط ، ذلك الذي لا تحرك اصبعاً دون اعلامه .

اشار أورغان إلى مكان بجانبه وقال وهو يربت على كتف كيريسك بيده الطويلة المليئة بالعقد :

- اجلس . اجلس هنا قربي . انت خائف بعض الشيء . في البداية كان الأمر عادياً ثم . . .

واستاء كيريسك ، لقد حزر العجوز اورغان . لكنه ، مع ذلك اعلن معترضاً :

- كلا يا اتكيتشخ^(١) ، انا لم اخف ابداً . ومم اخاف ؟

- كيف لا ، انك لأول مرة في البحر .

- وان كنت لأول مرة في البحر؟ لم يستسلم كيريسك : انا لا اخاف شيئاً .

- شيء جميل ، لكنني عندما خرجت لأول مرة إلى البحر ، وكان هذا منذ زمن بعيد ، اعترف انني خفت : نظرت فرأيت ان الشاطيء قد توارى منذ زمن ، والكلب الابلق قد هرب ، ولم اجد حولي إلا الامواج . عندها شعرت بالرغبة في العودة إلى البيت . ها هما امرابين وميلغون ، اسألهما كيف كانا يشعران .

فاجابا بابتسامة المدرك ، وهزا رأسيهما وهما ينحنيان على المجاذيف .

- أما انا فلا . ظل كيريسك مصراً .

فهدأ العجوز من روعه :

- اذا كان الأمر كذلك فأنت شجاع . أما الآن فقل لي في أية

(١) اتكيتشخ : جد ، ايها الجد (المؤلف) .

جهة ظل الكلب الابلق؟

تردد كيريسك بسبب المفاجأة، ثم اشار بيده :

- هل انت واثق؟ لماذا ترتجف يدك؟

وحرف الصبي يده قليلاً نحو اليمين وهو يهدىء من ارتجاف

يده .

- هناك!

فوافق أورغان .

- الآن صحيح . واذا ادركنا مقدمة القارب إلى هذا الاتجاه، اين

يصبح الكلب الابلق؟

- هناك!

- واذا أدارت الريح المقدمة إلى ذلك الاتجاه؟

- هناك!

- واذا ابخرنا نحو اليسار؟

- هناك!

- حسن . قل لي الآن، كيف تحدد الاتجاهات؟ فأنت لا ترى

بعينيك شيئاً مما حولك . انت محاط بالماء - كان اورغان يتابع

امتحانه - هل لك ان تشرح لي هذا؟

فاجاب كيريسك :

- عندي عيون أخرى .

- أية عيون؟

- لست ادري . انها في بطني على الاغلب، وهي ترى دون ان

تنظر .

- في بطنك!

وانفجر الثلاثة ضاحكين .

- وهذا صحيح . وافق أورغان . ولكنها ليست في بطنك ، بل في رأسك .

وأصر كيريسك ، مع انه وافق على ان مثل هذه الرؤية لا توجد إلا في الرأس .

- انها عندي في البطن .

بعد فترة قصيرة ابتداء العجوز بالامتحان من جديد . وبعد ان تأكد من قدرة كيريسك على تذكر الاتجاهات في البحر، أرضاه هذا وتمتم :

- ليست سيئة عيونك التي في بطنك .

واخذ كيريسك ، الذي اغراه المديح ، يطرح على نفسه المسائل ويحلها . وهي ما دام البحر هادئاً نسبياً لا تشكل صعوبة كبيرة . الكلب الابلق العظيم المخلص يستجيب دائماً ودون تخلف . فبدون أي اجهاد كبير للذاكرة كان يبرز أمام نظر كيريسك الداخلي في تلك الجهة التي بقي فيها تماماً . كان ينتصب وكأنه مرئي بكل كتلته الضخمة واحراجه المتشابكة ويقع الثلج على «رأسه» وفي «عانته» ، ويتكسر الموج الدؤوب الهادر عند اقدام الجبل . عندما تخيل الصبي الكلب الابلق لم يستطع إلا ان يتذكر الجبال الأخرى المحيطة . ودونما ارادة منه صار يفكر بالبيت ، ويتخيل الوادي الصغير بين المرتفعات الساحلية . وفي ذلك الوادي ، عند طرف الغابة وعلى ضفة النهر تخيل المخيم والبيوت الخشبية والبوايك والكلاب والدجاج وعلاقات تجفيف الاسماك والدخان واصوات العاملين ، وهناك أمه واخته الصغيرة بسولك . تخيل صورهم الحية ، وتخيل ما يفعلون ويقومون به الآن : الأم تفكر في سرها ، طبعاً ، به وبوالده وبهم جميعاً - جميع الصيادين الذين في البحر . تفكر وهي خائفة لثلاث تهدي الارواح

الشريرة إلى افكارها ولثلاثا تلحظ قلقها . من يفكر به ايضاً؟ موزلوك .
لقد حضرت الآن موزلوك حتماً لتلعب مع بسولك . قد تؤنب الأم
موزلوك لانها، في غفلة من امرها، قد تقول شيئاً، أو قد تسأل عنه - هو
الذي خرج إلى البحر - بصوت عال . توبخها الأم فوراً : «عن ماذا
تشرثرين؟ ألا تعرفين انه ذهب إلى الغابة ليجلب حطباً» وتستدرك
الصغيرة خطأها، فتسكت خجلة . مع تفكيره هذا حزن كيريسك
عليها . كان يريد ان تفكر به موزلوك، ولكنه لم يكن يريد ابداً ان تلام
بسبيه .

كان القارب لا يزال مستمراً في الابعار، غائصاً بعض الشيء
في الامواج، وكان يلعب حوله البحر المزبد من غليان الامواج . كان
النيفخيون يأملون في الوصول إلى أول جزيرة ظهراً، أو في نهاية النهار
كأقصى حد (وهي اقرب الضروع الثلاثة - الضرع الأصغر) والبدء
هناك بالصيد اذا ما توفقوا . بعد ذلك يبحرون مع هبوط الليل إلى
الضرع التالي - الاوسط . وهناك يبيتون الليل . انها لنعمة ان يوجد
قرب الشاطيء خليج مأمون لرسو القارب . في الصباح الباكر يخرجون
إلى البحر ثانية . اذا كان حظهم في المساء جيداً، واذا استطاعوا
اصطياد ثلاث فقمات كبيرة، فانهم سيسلكون صباحاً طريق العودة
دون تباطؤ . ولكن مهما كانت الأمور غير ذلك، فان عليهم العودة قبل
الظهر، وفي وقت لا يتجاوز بلوغ الشمس ارتفاع شجرتي حور . فمن
المعروف انه كلما بكرت في مغادرة البحر كان الوضع احسن .

كل هذا كان مدروساً من قبل العجوز أورغان، فكل شيء له
عنده حساب . ثم ان مساعديه امرابين وميلغون يخرجان الآن إلى
الضرع الثلاثة ليس للمرة الأولى . فهما يعرفان جيداً ماذا وكيف
ولماذا . اهم ما في القضية ان يستقر الطقس وان تكتشف الحيوانات

بسرعة في المراض. هذا هو المهم. أما فيما تبقى، فتدبر امرك كما تستطيع، وكل يسأل عن نفسه.

لم تكن الضرورة الدافع الوحيد لخروج الشيخ إلى الابحار. فالحاجة هي الحاجة، وبلا غداء من البحر لن تعيش - هذا واضح. لكنه خرج لسبب آخر: هو ان البحر اثار اهتمامه، فرحاب البحر دفعت الشيخ إلى التأمّلات العميقة. لقد كانت لديه افكاره الخفية، ولا شيء في البحر يحول دون الاستسلام لها، اذ ان كل ما لا تجد وقتاً للتفكير به - وسط الهموم اليومية على اليابسة -، يجيء دوره في البحر. فلا شيء يشغله هنا عن افكاره العظيمة. هنا يشعر انه من اقرباء البحر والسماء.

كان يدرك ان انساناً على ظهر قارب لا يساوي شيئاً بالمقارنة مع امتداد البحر اللامتناهي، لكن الانسان يفكر، وبهذا يرتقي إلى عظمة البحر والسماء، ويثبت وجوده أمام الطبيعة الابدية، وبهذا يتساوى مع عمق وسمو العوالم. ولهذا السبب، مادام الانسان حياً، فهو قوي بروحه كالبحر، لا متناه كالسماء، لأن فكره بلا حدود. وعندما يموت يتابع التفكير رجل غيره، ثم يتابع غيره، ثم غيره... إلى ما لا نهاية... ادراك هذا الأمر كان يمنح الشيخ حلاوة مرة لصلح لا يمكن ان يعقد.

كان يعرف ان الموت محتوم، وان نهاية حياته ليست بعيدة جداً، ويفهم ان الموت خاتمة كل شيء. ومع ذلك كان - لسبب ما - يأمل ان يتحقق وان يبقى معه، حتى بعد الموت، اعمق ما عنده - احلامه العظيمة عن السمكة - المرأة. فهو لا يستطيع ان يعطي احلامه لغيره، فالمنامات لا تمنح. لذلك كان يعتقد انها يجب ألا تزول دون اثر... يجب ألا تزول. السمكة - المرأة العظيمة، خالدة،

وبالتالي فالاحلام التي حولها خالدة .

غالباً ما كان يفكر بهذا طويلاً اثناء ابحاره . كان يصمت طويلاً ، ويختلي بنفسه ، دون ان يفتح أي حديث مع رفاق طريقه . كان ينظر إلى البحر ويتوجه إلى مجهول طالباً شيئاً واحداً فقط وهو: ترك أحلامه حول السمكة - المرأة العظيمة له . أيستحيل أن تذهب الاحلام مع اصحابها إلى العالم الآخر، ليروها دائماً وإلى أبد الأبدین، واذ لا يوجد الجواب يفكر متألماً، ويحاول اقناع نفسه بأن الأمور ستكون كذلك وان احلامه ستبقى له .

... منذ زمن بعيد وبعيد جداً، في زمن منسي ، كان يعيش على الشاطيء قرب جبل الكلب الابلق ثلاثة اخوة . الأخ الأكبر كان سريعاً، رشيقاً وحيوياً، يجد الوقت الكافي دائماً وابدأ لاعماله . تزوج من ابنة صاحب الايلة واصبح مالك قطعان الايلة، يتنقل في التوندرا . الأخ الأصغر كان صياداً متبعاً للآثر ورامياً ماهراً . تزوج ايضاً وانتقى لنفسه فتاة من سكان الغابة، ثم ذهب إلى التايغا واصبح صياداً هناك . أما الأخ الأوسط الأعرج منذ ولادته فكان حظه سيئاً . كان يستيقظ مبكراً وينام متأخراً، انما دون جدوى: فهو لا يقدر اللحاق بالايلة، ولا يستطيع اقتفاء اثر الحيوانات في الغابة، ولم يعطه احد ابنته زوجة له، وهجره اخوته فظل وحيداً على شاطيء البحر الازرق . كان يقات بما يصطاده بالصنارة من الاسماك . والأمر واضح، فكم يمكن الاصطياد بالصنارة؟ ...

وذات يوم بينما كان الأخ البائس الاعرج جالساً في قاربه، بعد ان القى بصنارته في البحر، شعر فجأة ان العصا تهتز بيده، وفرح - لقد علق الصيد . وبدأ يسحب السمكة الكبيرة ويقربها من القارب شيئاً فشيئاً .

نظر إليها - ياللمعجزة - سمكة على هيئة امرأة، تضرب الماء وتتلوى، تريد الهرب. جمال لا مثيل له: جسد املس، ذوبريق فضي، كاحجار الانهار تحت ضوء القمر، النهدان ابيضان تبرز منهما حلمتان قاتماتان، وكأنهما تبرزان من ثمرتي صنوبر، بينما عيناها الخضروان تقدحان شراً. سحب السمكة - المرأة من الماء واخذها من ذراعها، عندها عانقته واستلقيا في القارب فاصاب الدوار رأس الأخ الاعرج لشدة سعادته. هو لا يذكر ما الذي حصل له، لكن كان يخيل اليه ان القارب كان يقفز إلى السماء، كان البحر يتأرجح حتى السماء والسموات تتأرجح لتلامس البحر. وفجأة هدأ كل شيء مرة واحدة، وكأنه بعد عاصفة. عندها قفزت السمكة - المرأة من القارب وانطلقت تسبح، فاندفع الأخ الاعرج يناديها ويتوسل اليها ان تعود. لكنها لم تجبه واختفت في اعماق البحر.

هذه هي المغامرة التي جرت للأخ الاوسط الاعرج الوحيد الذي هجره الجميع وتركوه على حافة البحر. هربت السمكة - المرأة ولم تعد لتظهر ثانية. أما الأخ الاعرج فقد حزن كثيراً. ومنذ ذلك اليوم صار يذهب في الليل والنهار إلى الشاطيء الرملي باكياً، منادياً بلا توقف السمكة - المرأة، متضرعاً اليها وسائلاً اياها ان تظهر ولو من بعيد.

مع المد كان يسير ويغني:

اين تسبحين ايتها السمكة - المرأة العظيمة؟

مع الجزر كان يسير ويغني:

اين تسبحين ايتها السمكة - المرأة العظيمة؟

وفي الليل المقمر كان يسير ويغني:

هذا البحر - حزني انا.

هذه المياه - دموعي انا

وفي الليل المظلم كان يسير ويغني :
ايتها الأرض، والأرض - رأسي أنا الوحيد في وحشته
اين تسبحين ايتها السمكة - المرأة العظيمة؟

مر الشتاء ومر الربيع وهو على هذه الحال . وذات يوم صيفي ،
كان الأخ الاعرج البائس يسير على الشاطيء خائضاً حتى ركبته في
امواج المد الصاعد ومتطلعاً إلى البحر - ربما تظهر السمكة - المرأة
فجأة . كان يسير ويناديهما ، ربما تجيب السمكة المرأة فجأة ، ولكنه ،
فجأة ، سمع صوت بكاء طفولي صادر من المياه القريبة ، وكأن طفلاً
صغيراً يبكي بكاء مرأً . فجرى إلى مصدر الصوت وهو لا يصدق عينيه :
في تلك المياه الضحلة كان يجلس عارياً وليد جديد ، والامواج تغمره
تارة وتراجع عنه تارة أخرى ، وهو يبكي ويتساءل بصوت عال : «من هو
أبي ؟ اين ابي ؟» فاخذ العجب الأخ الاعرج ، ولم يعرف ، المسكين ،
كيف يجب ان يتصرف . عندما رآه الطفل صرخ : «انت ابي ، خذني
اليك ، انا ابنك» .

هذا ما حدث له ، فاخذ ابنه وانصرف به إلى بيته .

كبر الصبي بسرعة كبيرة . صار يذهب إلى البحر ، وصار صياداً
قويماً شجاعاً . لقد ولد محظوظاً : يلقي الشبكة فتخرج ملاءى ، يرمي
سهماً فيخترق سهمه حيواناً بحرياً . ذاع اسمه ومجده فيما وراء الغابة
والجبل . وزوجوه بكل احترام فتاة من قبيلة الغابة ، وانجب اطفالاً ،
وبدأ يتكاثر نسل السمكة - المرأة .

من هنا صارت تغني في الاعياد هذه الاغنية :

اين تسبحين ايتها السمكة المرأة العظيمة؟

احشاؤك الحارة - تبعث الحياة .

احشاؤك الحارة - ولدتنا عند البحر .

احشاؤك الحارة - افضل مكان في الكون .
اين تسبحين ايتها السمكة - المرأة العظيمة؟
اذاؤك البيضاء كرؤوس الفقومات .
اذاؤك البيضاء ارضعتنا عند البحر .
اين تسبحين ايتها السمكة - المرأة العظيمة؟
اليك سيسبح اقوي الرجال .
لكي تزهر احشاؤك ،
لكي يتكاثر نسلك على الأرض .



وينساب هذا المنام ببطء ، كالمند الجارف من اعماق المحيط ،
الذي يغمر لفترة ما الأرض الساحلية والاعشاب والكثبان ، في شفافية
عتمة الماء السحرية .

في كل مرة كان الحلم يترك لدى اورغان احساساً مذهلاً طويلاً .
لقد كان يؤمن بهذا الحلم لدرجة انه لم يقص على احد في الدنيا شيئاً
من رؤاه عن السمكة - المرأة ، كما لو انه يرفض رواية قصة مشابهة
وقعت له في الحياة العادية لأي شخص كان .

أجل . لقد كان هذا المنام الرفيق الذي كان يراود الشيخ حاملاً
له الفرح والحزن ، ومسبباً له آلاماً لا مثيل لها على الأرض . في كل مرة
كان يدهش أورغان بلا نهائية فحواه وتعدد مغازي الايماءات الكامنة
في تقلبات المنام وغرائبه غير المعقولة . وخلال تأملات اورغان بهذا ،
وخلال محاولاته حل لغز الالغاز - وهو تلك الرابطة الخفية المتغيرة
دائماً بين المنام والحياة الحقيقية ، والتي تعذب الانسان دائماً
بغموضها وبمراميها ، خلال ذلك كان أورغان يتوقف عند التفكير بانه
رغم عذاب روحه ، فهو يتوق دائماً إلى عودة هذه الاحلام ، وبحزن

مستمر يتوق دائماً للقاء معها، مع السمكة - المرأة العظيمة .

كان يصادفها في البحر. على أمل ظهورها كان يخرج إلى الشاطئء ويسير منتظراً على رمال الشاطئء المقفرة، التي لا تبقى آثار الاقدام عليها طويلاً، بل تظل عليها الظلال السوداء الساكنة، التي تخلفها اشعة الشمس الغاربة. كانت هذه الظلال شبيهة بالثلج الاسود، الذي كان يسير عليه متألماً، ملفعاً بحزن مبرح لا انساني . كان مفعماً بالم الحب، بالم الرغبات والأمل. أما البحر فكان يظل مقفراً غير مبال. فلا وجود لا للريح ولا للاصوات ولا للوضاء في هذه الوحدة الصامتة القلقة. كان ينتظر متطلعاً إلى البحر بلا انقطاع، ينتظر المعجزة، ينتظر ظهورها.

كان يعتره الضيق، لأن الامواج الصامتة كانت تقذف امامها على طريقه زبد المد الصامت الابيض. وكندف الثلج الكبيرة المتطايرة، كانت طيور النورس الخرساء تحوم فوق رأسه دونما ضجيج. لم يكن يجد في هذا الفراغ الاصم الابكم مكاناً له وهو يحس بنفسه مخدوعاً. كلما طال الانتظار استبد به شوق شديد جارف ومعذب وطاق اليها، حتى انه كان في الحلم يحس وكأنه في اسوأ حال وانه سيموت في فراغ الوحدة، اذا لم يرها، واذا لم تظهر. عندها كان يأخذ بالصراخ منادياً اياها. لكنه لم يكن يميز اصواته، اذ ان الصوت كان يغيب كما تغيب كل الاصوات في هذا الحلم العجيب. البحر كان يصمت، ولم يكن هوليسمع إلا صوت انفاسه المتقطعة العالي لدرجة لا تصدق ودقات قلبه التي لا تهدأ، والتي كانت تنتقل ضخمة إلى صدغيه، وكانت تطارده وتستثيره. لم يكن يعرف اين يختبيء، وكيف يتخلص من ذاته. لقد كان ينتظر السمكة - المرأة بتلهف مجنون، كما ينتظر الغريق آخر أمل بالانقاذ. كان يعلم ان السمكة -

المرأة، وحدها القادرة على منحه السعادة، كان يعلم ذلك وينتظر بصبر فارغ .

وعندما كانت، أخيراً، تظهر على سطح الماء، عندما كانت تسبح ساعية اليه ونظرها مشدود نحوه، بوجهها الغامض بين الامواج، كان ينهار صمت العالم . كان يستقبل صارخاً ومهلاً عوده الاصوات : هدير المد المنبعث من جديد وزئير الريح واصوات النوازل فوق رأسه . كان يقذف بنفسه اليها في البحر جذلاً، متحولاً إلى مخلوق سريع السباحة كالخوت .

أما هي ، السمكة - المرأة، فقد كانت تنتظره وتسير راسمة دوائر هائجة، قافزة فوق الماء، وكانت في قفزاتها الطويلة تتعلق فوق الماء مرتعشة، كاشفة بوضوح في هذه اللحظات عن جسد حي ، كآية امرأة عادية ذات فخذين جميلين، ظهرت فجأة في البحر .

كان يسبح اليها ويخرجان معاً إلى المحيط .

كانا يسبحان جنباً إلى جنب، ويتلامسان تلامساً خفيفاً خلال حركاتهما العنيفة المتسارعة باستمرار . هذا ما كان يقاسي من اجله تباريح الشوق وصمت الوحدة .

انهما الآن معاً، يغدان السير بسرعة وقوة لا تضاهيان إلى الابعاد المتلاثلة للمحيط الليلي الذي يشع ألماً غريباً، خارجاً من الاعماق، منبعثاً إلى خط الافق المتموج . لقد انطلقا إلى هناك إلى الافق مستحيل المنال، مخترقين بجسديهما الذؤابات المزبدة للامواج الجارية دون كلل نحوهما . كانا يتنقلان على هذه التموجات اللانهائية صاعدين إلى الأعلى أو منزلقين إلى الأسفل ، وهما مستسلمان لنشوة هذا الطيران المثير، تارة للأعلى وتارة للأسفل ، من مرتفع إلى مرتفع ، ومن منحدر إلى منحدر . والقمر الاصفر كان يرافقهما ويتبعهما دون

تخلف، قافزاً ببقعته المرآتية، ومتطاولاً اثناء جريه السريع على الامواج. هما والقمر وحسب - هو والسمة - المرأة. وحدهما يهيمن في هذا المدى المحيطي الذي لا حدود له. هما والمحيط. كان هذا قمة السعادة، ونشوة الحرية. كان هذا انتصار لقاتهما.

كانا يسبحان بلا توقف وبقوة عظيمة، خاضعين لسلطة رغبة لا تقاوم ببلوغ مكان ما في العالم، مخصص لهما، تحدهما رغبة جامعة للاتحاد في النهاية، كي يدركا في لحظة عابرة واحدة كل حلاوة ومرارة بداية ونهاية الحياة. . .

وهكذا كانا يسبحان بعزم وانطلاق، أملين تحقيق املهما المنشود بسرعة.

كلما اسرعا في السباحة ازداد تلهف الجسد الجماع اتقاداً، كان يسبح بلا تعب، كان ينطلق إلى الامام باقصى قواه، كسمك سليمان الذي يحمل إلى مكان الجماع كل طاقته الحياتية، حتى آخر قطرة. كان يسبح مستعداً للموت حياً. أما السمة - المرأة - اللغز فكانت تجتذبه ابعدهم وابعد إلى عمق المحيط، وكانت تتابع طيرانها بين الامواج في سحبات الرذاذ وقوس القزح البراق مدهشة اورغان بدفئها اللؤلؤي وسرعتها وغضاضة جسدها. كانت انفاسه عالقة - نظراً لكمال جمالها - بالزرقة والبياض اللذين تسبح بهما حبال دوامات الماء.

لم يتكلما عن شيء، بل كانا ينظر فقط احدهما للآخر باستمرار، محاولين تبين ملامح الوجوه الغامضة خلال تيارات الماء والرذاذ. كانا يمخران المحيط بلا توقف في انتظار متلهف متزايد الاصرار لحلول الساعة وبلوغ المكان الذي هياه لهما القدر.

لكنهما لم يصلا ابداً إلى ذلك المكان، ولم تحن قط تلك الساعة. . .

في اغلب الاحيان كانت احلامه تنتهي إلى لا شيء ، كل شيء
كان ينتهي فجأة ويتلاشى كالدخان . عندها كان يظل مشدوهاً . كان
يتألم فعلاً ويحزن طويلاً ، ويعاني من احساس بعدم الرضى والقصور .
كان يعود مرة أخرى ، وبعد انقضاء وقت طويل ، إلى تذكر كل شيء
من جديد . كان يفكر جدياً : ما معنى كل هذا ، وما مغزاه ؟ لقد آمن في
سره ان ما رآه في الحلم كان اكثر من منام . فالمنام العادي ، اذا ما تذكره
المرء ، سرعان ما ينساه إلى الأبد . ان مثل هذه الترهات تصدع
الرأس ، وما أكثر ما يتراءى للانسان في نومه من احلام . لكن اورغان
لم يكن لينسى ابداً السمكة - المرأة ، كان يفكر بها ، وكأنه يفكر بشيء
كان ولا يزال موجوداً في الحياة . لهذا السبب كان الشيخ يتألم بحق
عندما يتصور لقاءه وافتراقه المفاجيء مع السمكة - المرأة في الحلم
وكان ذلك قد حدث فعلاً .

ولكن ، كان يحدث ، ان تهتز روحه اعنف اهتزاز ، عندما ينتهي
حلمه نهاية مرهقة . في تلك الحالات كان يتألم في يأس وحزن
عظيمين ، اذ لا يجد تفسيراً لسير المنام الغريب المحير .
كان يحلم أحياناً انهما على وشك الوصول إلى المكان
المنشود ، وان شاطئاً ما بدأ يتراءى لهما من بعيد . كان هذا شاطئ
الحب ، ونحوه كانا يتجهان ، ويسرعان بكل قوتهما ، حيث تمتلكهما
رغبة عنيفة للوصول إلى هذا الشاطئ بأقصى سرعة ، حيث يتمكنان
من ان يمنح كل منهما نفسه للآخر . الشاطئ قريب جداً ، وفجأة
يصطدمان بالقاع الرملي لمنطقة ضحلة المياه ، حيث لا يصل الماء
إلى الركبة ، وحيث تنتهي السباحة . وفجأة يفطن اورغان إلى شيء ما
وينظر إلى الورا فيرى السمكة - المرأة تتخبط لاهثة في المياه
الضحلة ، محاولة الانفلات من أسر هذه الرمال الخداعة . ويلقي

اورغان بنفسه، وهو يتصبب عرقاً بارداً، لمساعدتها. ويمضي دهر بكامله وهو يزحف على ركبتيه، ملتصقاً بالقاع الرخو الشبيه بالمستنقع الذي يتلصق ما عليه، جاراً ساقيه الغريبتين عنه، المسترخيتين، اللتين لم تعودا تطاوعانه. لقد كانت السمكة - المرأة بجانبه، في تناول اليه، ولم يبق إلا القليل ولكن الوصول اليها كان مرهقاً. كان يختنق ويبلغ المياه، مترنحاً في رمل القاع الطيني، متعثراً بالنباتات المائية اللينة، لكن الأكثر ارهاقاً وإيلاماً أن يرى كيف كانت تتلوى وتتخبط سمكته - المرأة الرائعة وهي عالقة بالرمال. وأخيراً عندما يصل اليها متهاكاً من الدوار، يسير إلى الشاطيء ضاماً أياها إلى صدره، فيسمع بوضوح كيف يدق قلب السمكة - المرأة هلعاً وهو يكاد يتفتت. وكأنها طير جريح قبض عليه بعد مطارة. لهذا ولأنه حملها على ذراعيه، ولأنه ضمها بقوة اليه، ولأن كل كيانه كان مشبعاً بالركة والعطف عليها لدرجة الألم، وكأنه كان يحمل على ذراعيه طفلاً ضعيفاً، لكل هذا تغص حنجرتة بدمعة حادة محرقة. ويضبط نفسه كي لا يبكي، خجلاً من السمكة - المرأة. يحملها حابساً انفاسه، متنقلاً وكأنه يطير دون حركة في الهواء، مفكراً بها في كل خطوة. أما هي، السمكة - المرأة فقد كانت ترجوه وتتوسل اليه بدموعها، كي يعيدها إلى البحر، إلى الحرية. كانت تموت. كانت تنظر اليه صامتة بعينين متضرعتين شاخصتين، لم يكن يستطيع مقاومتها، فيعود ادراجه ويسير عبر الرمال إلى البحر، ويتوغلان في الماء اعمق فأعمق، وهناك يحررها بحذر من عناقه.

وتسبح السمكة - المرأة مبتعدة في البحر، ويظل هو ذاهلاً وحيداً. وبينما هو يشيعها بنظراته يستيقظ وينفجر بالبكاء. .
 أين تسبحين ايها السمكة - المرأة العظيمة؟

هذا البحر - حزني انا .

هذه المياه - دموعي انا .

والأرض - رأسي انا الوحيد في وحشته

أين تسبحين ايها السمكة - المرأة العظيمة؟ . .

كان هذا التذکر ثقيلًا وصعب الاحتمال ، فكأنما كان حقاً
يمسك بالسمكة - المرأة بين ذراعيه وكأنما اطلق هو سراحها . لماذا
حصل كل هذا؟ أيستحيل ان تتحقق في الحلم كل رغبات الانسان؟
على من يتوقف هذا؟ من وماذا يقف وراء هذا؟ ما المغزى وما هي
الحكمة والإلم ترمي؟ عندما يضيع اورغان في زحمة هذه الالغاز ، يلقي
بهذه الافكار ويحاول نسيان السمكة - المرأة وعدم التفكير بها .

غير انه ، عندما يمارس مهنته لم يكن يلاحظ كيف يعود إلى
التفكير بها ، وبكل ما هو متعلق بهذا . كان يبدو وكأنه يعيش من جديد
قصة هذا الحلم العجيب ، ويستغرب وهو يفكر بتعقل فيتساءل : لماذا
يفكر بهذا ، وهل من شأنه ، وهو العجوز أن يكابد من أجل السمكة -
المرأة ، التي لا وجود لها؟ كان يلوم نفسه ويعترف لنفسه : لولاها لضاق
ذرعاً بنفسه . لقد كبر ولم تعد قواه كما كانت ، وعيناه ليستا تلك العينين
القديمتين ، وجماله وليّ وأسنانه تساقطت . كل ما كان يعتد به يزول
ويتهدم . والموت ليس بعيداً جداً ، إلا ان صدره لا يستسلم . الرغبات
في صدره تعيش كما كانت في الشباب . المصيبة ان روحه لا تهرم .
لذلك تأتيه افكار كهذه ، ويرى احلاماً كتلك ، لأن الانسان يرى نفسه
خالداً وحرراً في افكاره واحلامه فقط . فبالحلم يصعد إلى السماء
ويغوص إلى اعماق البحر . وهذا مصدر عظمته - انه حتى ساعة الموت
يظل يفكر بكل ما في الحياة . لكن الموت لا يقيم لهذا وزناً ، فلا شأن
له بأن الانسان كان يعيش ، ولا شأن له بالعظمة التي ارتقى اليها في

تفكيره، وبالإحلام التي رآها، لا شأن له بمن كان هذا الإنسان ولا بماذا كان فكره مشغولاً. كل هذا لا قيمة له عنده. لمماذا الأمر كذلك؟ لماذا خلقت الدنيا هكذا؟ فلتكن السمكة - المرأة حلماً، ولكن ليبقى هذا الحلم إلى الأبد، حتى هناك، في العالم الآخر..

ومثلما كان يؤمن بالسمكة - المرأة، كان اورغان يؤمن بأن البحر كان يصغي إليه. هنا كان يتنفس ويفكر بيسر. هنا كان يسكب روحه. كان أحياناً، عندما تثقل عليه افكاره، يسأل نفسه: «اليس هذا هو المكان الذي سبحت واياها فيه؟».

في هذه الدقائق صار يحشو غليونه من جديد، ويتلذذ بدخان التبغ: «أين تنبت هذه الاعشاب. تبدو شريرة ولكنها تروح عن النفس... في منشوريا. هكذا يقول التجار. من هناك يجلبونها. بعيدة منشوريا هذه. أوه بعيدة. لم يزرها احد من رجالنا ابداً. ايمكن ان ينبت التبغ هناك، وكأنه عشب في الغابة؟ يا للعجائب. ما اكثر ما يوحد في هذه الدنيا...»



جاوزت الشمس الظهيرة. وكانت في غضون ذلك قد توارت أكثر من مرة خلف الغيوم، التي كانت تندفع من مكان ما وراء الافق، وكأنها هناك مكاناً يعيش فيه الطقس السيء. اذ ذاك كان البحر يكفهر فوراً، وتظلم جنباته، فيصبح الجو المحيط معتماً ومتجهماً. ثم تعود الشمس ثانية للظهور والانارة من وراء الغيوم بسطوع وكرم الربيع. اذ ذاك كان البحر يتراقص بكميات هائلة من انعكاسات النور الحية السابحة في الماء، اللماعة لدرجة ايلام العين، وتعود البهجة إلى الروح من جديد.

بالرغم من ان كيريسك اعتاد على البحر، لدرجة انه بدأ بما

فان الاحساس بالاستغراب لرحابة الابعاد البحرية التي تنبسط على امتداد النظر، لم يفارقه بعد. مضى الكثير وهم يببحرون، وحتى الآن لم يروا طرف البحر ونهايته. على الأرض، مهما كانت واسعة، فانه ما كان ليندهش كما في البحر.

أما الكبار فلم يدهشهم شيء ابداً. كل شيء كان اعتيادياً. امرابين وميلغون كانا مستعمرين في التجذيف بالوتيرة نفسها، وبدون خلل كانا يشقان بمجازيفهما سطح الماء. كانا يعملان دون تعب، حتى انهما لم يسمحا لأورغان بأن يحل محلهما لكي يلتقطا انفاسهما، وقالوا له انه من الافضل التبديل في طريق العودة، عندما سيكون القارب محملاً، عندها سيساعدهما، أما الآن فليوجه المركب بهدوء. العجوز أورغان كان طويل الرقبة، مع بروز لحنجرته، وكان يجلس على مؤخرة القارب مقوس الظهر كالنسر المتربص بفريسته، صامتاً، مستغرقاً في افكاره.

والقارب يسبح برشاقة، غائصاً في الامواج، والامواج كما كانت، معتدلة القوة، والرياح تسير منخفضة غير متبدلة. هكذا ابحروا...

- اتكيتشخ، اتكيتشخ! ها هي ذي الجزيرة «الضرع الاصغر»
- صرخ كيريسك فجأة فرحاً وهو يهز اورغان من يده.
- اين الجزيرة؟ لم يصدق أورغان. فظلل عينيه بكفه، والتفت
المجذفون مندهشين إلى حيث اشار الصبي.

- مستحيل! تمت العجوز بهذه الكلمات لأن الصغير اشار إلى الاتجاه المعاكس تماماً، إلى الجهة التي لم يتوقعوها.

لم يكذب الصبي. فهناك، في المدى البعيد جداً كان يبدو
- فضلاً - اسوداد شريط متعرج ساكن، غير متحرك، ذي لون اسمر

معتم. لقد كان كمقدمة جسم صلب وسط الماء. وحدق اورغان
طويلاً.

واخيراً قال متأكداً:

- كلا. ليس هذا جزيرة. إلى الضرع الأصغر علينا ان نبحر
بخط مستقيم باتجاه الغروب، إلى حيث تتجه، وهذا في الاتجاه
المخالف. هذا ليس جزيرة. لدي انطباع بأنه ليس جزيرة.
وقال ميلغون:

- لم تكن توجد هذه الجزيرة في هذه المياه. لم نر مثل هذه
الجزيرة قط، «الضرع الأصغر» سيكون على يسارنا، أما هذا فلا ادري
ما هو.

وقال امرابين:

- أليس هذا ضباباً، أو غيمة ما؟ أم أنه موجة مزبدة ولكن لماذا
لا تتحرك؟

ما هو ذلك، ذلك، ما هو ربما ضباب أو غيمة، من يعلم. انه
بعيد عنا. ولكن ليس جزيرة - هكذا صار يؤول اورغان - واذا كان هذا
ضباباً، فلا شيء يسر.

واعلن امرابين رأيه وهو يعتمد على المجاذيف قائلاً: لا

- لا بأس، شريطة الا يتبدل الهواء. انه واقف مكانه ولا يتحرك،

ولا عمل لنا نحن في تلك الجهات، فليكن هناك ما يكون.

وخاب أمل كيريسك في البداية، لأن ما اكتشفه كان شيئاً
غامضاً، لكنه سرعان ما نسي هذه.

أما الصيادون فلم يخطئوا. فجزيرة «الضرع الأصغر» سرعان ما
ظهرت من الماء في الناحية اليسرى. هنا لم يكن ثمة شك. لقد كان
ما ظهر نتوءاً من اليابسة صخرياً اسمر صغيراً، يذكر فعلاً بالثدي.

لدى رؤية الجزيرة انتعش الجميع، واولهم كيريسك، فالبحر
إذن ليس بلا نهاية. وهنا بدأ امتع ما في الرحلة.

- ها هي. وشد أورغان القبعة التي كانت على رأس الصبي:
لقد اوصلنا الكلب الابلق إلى الجزيرة، مع انه بقي في بيته، أما نحن
فقد وصلنا إلى مكان الصيد دون ان نضل الطريق، لاننا كنا نتذكره.
ما رأيك هل سيلزمنا الكلب الابلق ايضاً؟

وأكد كيريسك بمنتهى الثقة:

- كلاً لن يلزمنا، فنحن انفسنا الآن نرى إلى اين يجب ان نبحر.
فقال أورغان معاتباً:

- لو انك تفكر بذلك. فانت متسرع جداً، لو انك تفكر.

ولم يستوعب كيريسك ذلك. ما حاجتهم إلى الكلب الابلق في
البحر وعند جزيرة بعيدة؟.

- ما نفع كلبنا الابلق هنا؟

- وكيف ستعود إلى البيت؟ إلى اين ستبحر؟ إلى أية جهة؟ هيا
فكر. حذرت؟ تذكر من أي جانب نقترب، وأي جوانب الجزيرة ينظر
إلى الكلب الابلق عندها ستعرف أي طريق ستسلك للعودة.

وافق كيريسك بصمت، ومع ذلك فقد خدشت كبرياؤه، وربما
لذلك سأل بشيء من الانفعال:

- واذا كان الوقت ظلاماً؟ آ؟ اذا وجدنا انفسنا في البحر ليلاً، ولا
نرى شيئاً؟ آ؟ عندها ماذا؟ كيف سنعرف اذ ذاك اين هو الكلب الابلق،
وفي أية جهة، آ؟

فأجابه أورغان بهدوء:

- حسن، واذا ذاك بإمكانك ان تعرف. فمن اجل هذا، توجد
النجوم في السماء. فالنجوم لا تخيب الظن، وتدلك بدقة دائماً.

يكفي ان تعرف جيداً اين توجد كل نجمة . اعطني فرصة وستتعلم .
اتعرف نجمة البطة لوفر؟

- يبدو انني اعرفها . قالها بتردد، ناظراً إلى ابيه
فهم امرابين مأزق ابنه :

- يعرفها بعض الشيء ، فقد اريته اياها ذات يوم ، لكن هذا لا
يكفي ، يجب ان يتعلم ايضاً .

وهكذا كانوا يبحرون مقتربين شيئاً فشيئاً من الجزيرة . وعندما
صارت بعض حجارة وصخور الشاطيء ممكنة التمييز ، اتجهوا ليلتفوا
حول الجزيرة مركزين انظارهم على الشاطيء ليكتشفوا مريض
الفقمات . كان كيريسك ينظر بحرص كبير ، اذ كان يريد ان يكون أول
من يرى القطيع ، لكنهم حذروه ، بأن لا يصدر ضجيجاً زائداً اذا ما رأى
الحيوانات . وقال اورغان ان الفقمات تربض بين حجارة الشاطيء ،
عند الماء ، فهي تزحف إلى اليابسة لتتدفأ تحت اشعة الشمس . يجب
اكتشاف مكان ربوضها ، ومن ثم التسلل اليها بعد النزول خفية إلى
الأرض ، بقصد عدم اثارة فزعها . لكن كيريسك ، رغم ذلك ، لم ير
شيئاً ، لقد كانت الشيطان خالية قفراء ، لم يكن هناك إلا صخور
متوحشة كثيرة ، هدمها الزمان ، فاصبحت احجاراً لا شكل لها ، وحول
الجزيرة كان المد يهدر ضارباً حلقه من الزبد الابيض الفوار ، المتدافع
باستمرار بين اكوام الحجارة المغطاة بالجليد . كلا لم ير كيريسك على
الجزيرة شيئاً ، لا شيء سوى حجارة على حجارة ، ولا أي مخلوق
حي .

إلا ان ميلغنون كان أول من لاحظها . وبينما ادار كيريسك
رأسه ، محاولاً رؤية المكان الذي تربض فيه الفقمات ، تماماً ، كان
القارب قد ابتعد عن هذا المكان ، لكي لا يرى من المريض .

وفهم العجوز أورغان ، ان كيريسك لم ير شيئاً ، وسأله :

- هل رأيتها؟

ولم يتجرأ الصبي على الكذب ، واعترف :

- كلا لم ارها .

وأمر أورغان :

- لنقترب مرة اخرى . تعلم كيف ترى بين الاحجار ، وإلا فلن

تستطيع ان تصبح صياداً .

أطاع المجدفان امر اورغان ، وعادا بالقارب إلى مكانه السابق ،

بالرغم من خطورة ذلك ، اذ يكفي ان تعلن فقرة واحدة اشارة الخطر ،

حتى يغطس القطيع كله في البحر . لحسن الحظ لم تكتشف

الحيوانات الصيادين . فهي تضطجع خلف حاجز من الصخور ، وسط

الاحجار المنقرة المبعثرة بلا انتظام ، عند المياه تقريباً . قال ميلغون

لكيريسك :

- انظر، هناك حجر مدب يشبه ناباً مهشماً ، وبالقرب منه تل

صغير محمر يغطيه الجليد ، انظر بينهما .

نظر كيريسك ، بينما كان ميلغون وامرايين يحركان المجاذيف ،

محاولين تثبيت القارب في مكانه . وهنا شاهد كيريسك ظهور

الحيوانات البحرية وزعانفها الذيلية القوية . كانت الظهور الرمادية

المبقعة اللامعة ثابتة بلا حراك ، وقد كانت مستحيلة التمييز ، عن بعد ،

بين الاحجار ، بالنسبة لعين غير خبيرة .

ومنذ هذه اللحظة سيطر القلق على الصبي . ابتدأ الصيد :

هذه هي الحيوانات البحرية الحقيقية . هذا هو الصيد السمين .

عندما صاروا يهبطون ، بعد ذلك ، إلى الشاطئ ، كان الصبي

متحمساً ومذموماً بالاعتداد والاستجاب : الاعتداد لانه احسن الناس في

هذه اللحظة قوياً وذا شأن وبالعجاب لانه رأى كيف كان الصيادون يعملون بدقة وصعوبة: كيف اوصلوا القارب إلى الشاطيء، وكيف ثبت امرائين والعجوز أورغان القارب عند حدود المد بواسطة المجاذيف، بينما كان يستعد ميلغون ليقفز بعد ذلك برشاقة إلى حصى الشاطيء الاملس، وكيف جر بعد ذلك القارب شاداً طرف الحبل فوق كتفه وساحباً اياه، وكيف قفز والده إلى الشاطيء بعد ان حمل بندقيته الوينشيستر، وتبعه هو، لكن ليس دون مساعدة العجوز أورغان، ومع ذلك فقد بلبل قدميه بمياه موجة من موجات الشاطيء، فسمع من والده تحذيراً بصوت منخفض.

ظل أورغان في القارب ليثبته على الامواج قرب الشاطيء، واسرع الثلاثة امرائين وميلغون وكيريسك إلى المربض. ساروا بحذر وانتباه غريزيين، منحنيي الظهر متنقلين بقفزات رشيقة من مخبأ إلى مخبأ. لم يقصر كيريسك، ولكنه كان يحس كيف يدق قلبه بعنف في صدره، وكيف يدور رأسه بين الحين والآخر من جراء الشعور بالفخر والقلق.

لو تراه الآن سلالة السمكة - المرأة، وهو يسير مع صيادين كبار، يصطادون الحيوانات البحرية، لو تراه الآن أمه لفخرت به، بصياد المستقبل العظيم ومعييل الاسرة، لو تراه الآن موزلوك، التي غالباً ما كان يلعب معها، لكنه من الآن فصاعداً، صار يدعى الصياد، ولن يلعب ابداً. ولو تراه وهو يتسلل الآن، بعيداً عن كلبهم الابلق في شاطيء غريب رهيب، بين الصخور والحجارة المتوحشة، إلى مربض الفقمت. ليست المشكلة ان تكون بنادق الوينشيستر موجودة مع ميلغون وامرائين: لقد وعده والده بأن يعطيه البندقية عندما يحين وقت اطلاق النار.

وهكذا كانوا يسرون متسللين إلى مكان المريض . بعد ذلك صاروا يزحفون على الأرض ، وزحف معهم كيريسك . لقد كان صعباً وشاقاً الزحف على الحجارة القاسية والجليد الصلب ، لكن كيريسك كان يدرك ان هذا ضروري .

كانوا يزحفون ، ويتنفسون بصعوبة والعرق يتصبب منهم ، كامنين متخفين احياناً ومراقبين متفحصين احياناً أخرى ، ناظرين إلى كل الاتجاهات . وعندما لم يبق إلا التصويب والرمي تجمدوا وتجمدت انفاسهم .

لقد حفظ كيريسك إلى الأبد هذه اللحظات ، وهذا اليوم الربيعي ، وهذه الجزيرة الصخرية الباردة وسط البحر الهائل الذي لا حدود له ، وحفظ حجارة الجزيرة المتوحشة الصهباء القاتمة المقتلعة والمبعثرة في كل مكان من قبل قوة ما مجنونة ، حفظ هذه الأرض العارية المتجمدة التي كان منبطحاً عليها ، والتي لم تتحرر بعد من الجليد ، حفظ هذه الأرض القاسية الميتة ، وبجانبه ابوه وميلغون ، اللذان كانا يستعدان للرمي . وفي الامام ، في المريض ، على شاطئ البحر تماماً ، بين الصخور المهدمة المنقرة ، المغطاة بالطحالب والتي هدمتها الرياح والأمواج ، حفظ قطع الفقمت الصغير ، الذي لم يكن بعد قد لاحظ شيئاً ، والذي لا يزال رابضاً بسكون في مكانه . وفوقه ، وفوق المريض وفوق الجزيرة وفوق البحر حفظ السماء الباردة المغطاة بضباب خفيف والتي كانت - كما بدت اذ ذاك - متحفزة في انتظار الطلقة الأولى .

«ليتي اصاب» . هكذا كان يفكر وهو يقترب بكتفه من اخمص الوينشيستر التي اعطاه اياها والده .

في تلك اللحظة القصيرة التي انتظرها طويلاً ، والتي رأى فيها

نفسه، بفخر، صياداً شجاعاً، كبيراً، في تلك اللحظة ادهشه فجأة ان
الظهور والجنوب الحية لهذه الحيوانات الثقيلة السمينة المتراحمة في
هذا الوادي الصخري بانتظار اشعة الشمس الشحيحة، ضعيفة
وعديمة الحيلة لدرجة كبيرة. لكن هذا لم يكن إلا تردداً مؤقتاً. لقد
تذكر انه صياد، وان الناس ينتظرون منه صيداً، وان الحياة بلا لحم
وشحم الفقمات حياة جائعة بائسة. ولمعت في ذهنه فكرة ان يكون
أول من يطلق، لكي يظهر مقدرته. فاشتدت عزيمته، وسدد بقوة، كما
نصحه ابوه: إلى ما تحت الزعنفة اليسرى مع انحراف بسيط نحو
اليمين والأعلى، إلى قلب هذا الحيوان المبقع الضخم. وفجأة
يحترس الحيوان وكأنه أحس سلفاً بالشر، بالرغم من انه لم ير
الصيادين ولم يكن بإمكانه ان يشم رائحتهم - فالريح تأتي من جهة
البحر - كان يجب التحرك قليلاً إلى الجانب كي يصبح التسديد
احسن، اذ ان شيئاً ما كان في الامام، يعوق ذلك، انه ظل ما. كان
يجب التحرك بحذر شديد. وهنا انزلق حجر تحت كوع كيريسك بحدة
وتدحرج على المنحدر إلى الأسفل، مرتطماً بالحجارة التي تصادفه.
فاصدر الحيوان المبقع عواء قصيراً، وتحرك القطيع فجأة، وزحف
بسرعة ليغوص في الماء وهو يصدر اصواتاً عالية. في تلك اللحظة
دوت طلقة، مستبقة انسحاب القطيع إلى البحر، واخترت فقمة كبيرة
من طرف القطيع. انه ميلغون الذي انقذ الوضع. وارتبك كيريسك.
- اطلق. أمره امرابين.

فصدم كتفه صدمة كبيرة، ودوى صوت الاطلاق في اذنيه فغرق
كل شيء في صمم. واستولى على كيريسك خجل لا يطاق، لانه لم
يصب ولان الصيد فشل بسببه لكن والده وضع في البندقية طلقة
جديدة:

- لقم واطلق بسرعة .

ان ما كان يبدو على غير هذه الدرجة من الصعوبة - التلقين والاطلاق (كم من مرة فعل ذلك بكل بساطة، عندما كان يتعلم الرمي)، لم يتم الآن . فمغلاق الونشيستر لم يطاوعه مباشرة . خلال ذلك كان ميلغون قد اطلق طلقتين اخريين - وهو جاث على ركبتيه - في اثر الفقمت الزاحفة نحو الماء . جرح احدها فصارت تدور حول نفسها عند حافة الماء . واسرع الصيادون إلى هناك . القطيع كان قد اختفى في البحر بينما كان الحيوان الجريح ، الذي وقف عند الشاطيء ، يحاول بكل قواه الزحف إلى الماء . عندما وصل الرجال إلى هناك ، كانت الفقمة قد وفقت في الوصول إلى الماء ، وانطلقت سابحة ، مخلفة وراءها بقعة دموية متموجة ، محرقة اطرافها الامامية ، غائصة ببطء في عمق البحر الشفاف . لقد كانت عينها الجاحظتان المفزعتان مرئيتين بوضوح ، وكان ظاهراً الشريط البنفسجي الباهت على امتداد عمودها الفقري من قذالها حتى آخر ذنبها . وانزل ميلغون البندقية عن كتفه ، اذ لا جدوى الآن من اللحاق بالفقمة .

قال امرأين :

- دعها ، فانها ستغرق على كل حال .

أما كيريسك فقد وقف لاهثاً مغلوباً على امره مستاء من نفسه .

لقد كان يتوقع اكثر من ذلك بكثير . هذا هو الصيد السمين !

وصمت الصبي ، لقد جمع كل قواه كي لا ينفجر فجأة بالبكاء

لشدة الغيظ . إلى هذه الدرجة وصلت به المرارة .

- لا عليك ، سيحالفك التوفيق في مرات اخرى - صار ميلغون

يهدىء من روعه عندما اخذوا بتقطيع الفقمة القتيلة - سنبحر الآن إلى

الضرع الاوسط، وهناك الحيوانات أكثر.

وبدأ كيريسك بالكلام:

- أجل لقد تعجلت . . .

لكن اباه قاطعه:

- لا تبرر نفسك. فليس هناك من يصبح صياداً من الطلقة

الأولى. عندما ستجيد الاطلاق على الحيوانات، لن تهرب منك الفريسة ابداً.

وسكت كيريسك. إلا انه كان شاكراً في قرارة نفسه، لأن الكبار

لم يؤنبوه. وقطع على نفسه عهداً بالألا يتعجل في الصيد، وألا يفكر بأي شيء آخر، وبأن يطلق عندما يتأكد من أن عينه وتنفسه - كما علمه والده - «قد انتقلا إلى الهدف» عندها يرسل الرصاصة.

لقد كانت الفقمة كبيرة وثقيلة، ولا تزال ساخنة، وكأنها حية.

فرك ميلغون كفيه علامة الرضى وهو يسلمج جلد الحيوان عن بطنه:

«أترى الشحم؟ بسماكة اربعة اصابع، فقمة جيدة». نسي كيريسك

غيظه وبدأ يساعد ميلغون منهمكاً، بينما ذهب امرابين إلى العجوز اورغان ليرسيا القارب في مكان اقرب.

وسرعان ما عاد مستعجلاً منهمكاً.

- الوقت لا ينتظر، اسرعا. وتابع وهو ينظر إلى السماء، دون ان

يوجه كلامه لاحد: الطقس لا يعجبني.

بعد ان افرغ الصيادون الفقمة من احشائها، اذ لم يتركوا سوى

القلب والكبد، حملوها على أوتاد موصولة ببعضها البعض إلى

القارب، بينما كان كيريسك يتبعهما وهو يحمل بندقيتي الونشيستير.

على الشاطيء قرب القارب كان ينتظرهم أورغان. لقد كان

الشيخ مسروراً.

- لسمع كورنغ* كم نحن فرحون ، فهذه بداية جيدة - قال هذا وهو يجهز سكينه الكبيرة للمائدة .

وآن أوان اهم ما بعد الصيد - التهام كبد الفقمه نيئاً في المكان نفسه . جلس اورغان فوق الصيد المشرح وقطع الكبد إلى قطع صغيرة ورش عليها بعض الملح ، وازرد الصيادون قطع الكبد الطرية وهم يتمطقون تلذذاً . لقد كان الكبد لذيذاً جداً - طرياً ، ساخناً ، دسماً . كان يذوب في الفم مغلفاً اللسان بعصير كثيف . لقد تحقق حلم كيريسك ، بأن يأكل - كالرجال الاشداء - الكبد النيئة في الصيد .

- ازرد ، ازرد اكثر - نصح اورغان الصبي - فالليل سيكون بارداً وستبرد . والكبد أحسن مدفيّء ، والدواء الأول لكل الامراض .

لقد كان هذا رائعاً . شبعوا تماماً ، فشعروا فوراً برغبة بالشرب ، لكن الماء كان في البرميل على ظهر القارب .

- لا ضرورة لتقسيم الحيوان الآن .

قال امرابين هذا ، بعد ان شبعوا ، ونظر إلى السماء ثانية بقلق . فوافقه اورغان :

- لازال لدينا متسع من الوقت .

واضاف :

- عندما سنستقر في الضرع الاوسط ، سنحضر شيئاً من أجل الليل . لنحمل الآن .

وقبل ان يبحر الصيادون لم ينسوا ان يطعموا الأرض ، فنثروا قلب الفقمه المقطع إلى قطع صغيرة على نية الرب مالك الجزيرة ، لكي لا يحجب عنهم هذا التوفيق في المرات الأخرى . وهكذا خرجوا

* الإله الأعلى .

ثانية إلى البحر.

لقد أصبح الضرع الاصغر في الورا. كانت هذه الجزيرة الصغيرة الوحيدة اليتيمة وسط المياه العابسة تثير احساساً بالشفقة والقلق عليها.

خط سيرهم كان نحو الضرع الاوسط. كان النهار يميل نحو المساء. رانحنى المجذفون فوق مجاذيفهم، وهم يسرعون محاولين الوصول إلى الضرع الاوسط قبل ان تظلم، وهناك عليهم ارساء القارب في مكان مستور، والمبيت على الجزيرة. وسرعان ما غاب الضرع الاصغر عن الانظار، وكأنه غاص في البحر، لكن الاوسط لم يظهر بعد. وعاد الماء ليحيط بهم من جديد.

بينما كانوا يتصيدون الفقمة، كان البحر قد تغير تغيراً جلياً، فالامواج اصبحت اكثر كثافة، واكثر قسوة، وكانت كتلة المياه لا تزال تزحف في الاتجاه السابق، أما الريح فقد وجدت الوقت الكافي لتتحول. وصار القارب يهتز ويتأرجح بشكل اقوى الآن. لكن ما أثار قلق الصيادين اكثر من غيره هو السماء. بماذا كانت تنذر؟ شيء غامض وغير اعتيادي في هذا الوقت من اوقات السنة؟ في الهواء يطير غبار مجهول المصدر حاجباً السماء بستارة بيضاء زاحفة، وكأنه دخان ساخته ريح عالية من حرائق الغابات البعيدة، المستعرة في مكان ما في الادغال السوداء. وبالرغم من ان هذه الغمامة كانت تستر صفحة السماء فقط، ولا تزجج احداً بشيء، فقد كان الصيادون متجهمين.

- من أين تأتي؟ تتمم اورغان وهو ينظر حوله مستاء.

الآن صاروا يبحرون متوترين، ومع كل ضربة مجذاف كانوا يتوقعون ان تبدو الأرض امامهم - الضرع الأوسط، أكثر الضروع الثلاثة راحة وضماناً.

طرف البحر، وربما من طرف الكون. لشدة ما كان هذا بعيداً وغير شبيه بالحقيقة. كان يمكن بكل بساطة النظر إلى الشمس دون ازاحة النظر عنها. كانت الشمس المرسومة بدقة، الموشاة بلون احمر تنطفيء مغالية في احمرارها المضطرب، في ذلك الجانب المشوب بالدخان الاحمر. انكشفت السماء وساد النور والطمأنينة العالم من جديد. كان هذا يبدو كافياً، فزال التوتر فوراً. وصار الرجال في البحر يشمون سلفاً رائحة الملجأ والراحة في الجزيرة.

وقال أورغان لكيريسك الجالس إلى جانبه مشجعاً اياه مرتباً على ظهره:

- انتظر قليلاً، وينتصب امامنا الضرع الأوسط.

منذ وقت طويل والصبي يريد الشرب، ولكنه يكابر، متمسكاً بشدة - نظراً لسذاجته الطفولية - بموانع والده. فقد قال له قبيل الابحار، ان ماء الشرب في البحر قليل دائماً، ولا يجوز الشرب عبثاً، كما في البيت اذ لا يوجد على الجزر الثلاث أية نقطة ماء عذبة، فضلاً عن انه ليس من الممكن تحميل المركب حملاً اضافياً. الشرب ممكن فقط عندما يكون الجميع راغبين بالشرب.

في تلك الفترة المنيرة، عندما ظهرت الشمس فجأة في الافق الذي انقشع احس الصبي طيبة العجوز اورغان، فقال له بجرأة مبتسماً وناظراً إلى والده:

- اتكيتشخ، انني متلهف لشرب الماء.

فضحك اورغان مدركاً:

- هكذا اذن. بعد مثل هذا الكبد ليس مستغرباً. الأمر واضح،

ونحن جميعاً نريد ان نشرب، أليس كذلك؟

ويعلن امرائين وميلغون موافقتهما بهزة رأس من مكانهما. فأسر

هذا كيريسك . اذن الجميع يريدون ان يشربوا ، وليس هو وحده .
- مادام الأمر كذلك ، فلنرفه عن أنفسنا بشيء من الماء ، بعد ذلك ندخن .

مع هذه الكلمات ثبت العجوز أورغان الدفة ، وتناول من قاع الموكب برميل الماء ووضعه في متناول يده وصار يصب الماء في طاس من نحاس مطلي من الداخل بالقصدير . كان الماء رقيقاً بارداً ، نهله من النبع الموجود على سفح الكلب الابلق المقابل للبحر ، هناك يوجد اشبه بماء . فهو هناك دائماً نظيف ولذيذ ، وفي الصيف يعبق برائحة العشب المنقوع ورطوبة الأرض .

كان كيريسك يمسك الطاس تحت خيط الماء المنسكب . كان يتلطف لارواء ظمئه بسرعة ، وعندما امتلأ الطاس حتى منتصفه قطع العجوز اورغان الخيط بواسطة الغطاء .

وقال لكيريسك :

- هيا اشرب ، ومن ثم تسقي الآخرين . وحذره : لا تدلق الماء .
شرب كيريسك في البداية بنهم ، وعند النهاية ابطأ ، عندها أحس بأن الماء مشبع برائحة الخشب الرطب .

سأله أورغان :

- ارتويت؟

- نعم .

- أرى بعينيك انك لم ترتو تماماً ، ولكن لا بأس ، سأعطيك

قليلاً . الكبد شيء قوي . لو كنا على الأرض لامكنك ان تشرب سطلاً كاملاً . قال العجوز هذا وهو يصب لكيريسك في قعر الطاس .

ارتوى بعد ذلك تماماً . واحس بصحة الكلمات التي يتلفظ بها

الكبار في مثل هذه الحالات : آه ، لقد انفرج الضيق .

ثم سكبنا لكل مجذف ثلاثة ارباع الطاس ، كان كيريسك نفسه يقدمه لكل منهما . فبعد ان شرب حتى الارتواء ، لم يكن لديه أي مانع ، في ان يشرب والده وميلغون بقدر ما يرغبان . إلا ان الزعيم اورغان كان يرى من الضروري ان يشرح له لماذا صب لكل منهما ثلاثة ارباع الطاس :

- انت مازلت صغير الجسم ، اما هما فانظر ما اكبرهما . وعملهما صعب ، فعندما تجذف تحتاج إلى الماء كثيراً . وبالفعل فقد جفف المجذبان الطاس فوراً ، مما اضطره ان يصب لهما ايضاً . في هذه المرة ، وجد الزعيم اورغان من الضروري تنبيه المجذفين :

- انتما يا اخوان ، لا تكثرا ، فلستما على ضفة النهر . واكتفى امرائين وميلغون رداً على ذلك بالابتسام . نعرف ولكن لا حول لنا ولا قوة . كنا عطاشا .

وعندما شرب اورغان حصته هز رأسه ساخراً :
- اجل ، ليس سيئاً ان تجلس على ضفة نهر . انه قوة هائلة هذا الكبد النيء . . . ثم حشاً غليونه واشعله ، ونفث الدخان مستمتعاً ، دون ادنى ظن في انه لن يعيش بعد قط مثل هذه السعادة .
كيريسك أول من رأى المصيبة !



قبل ذلك سادت لحظة هدوء رائعة ، عندما احس الجميع بالرضى والسعادة بعد ان اطفأوا ظمأهم .
لقد اصطادوا الفقمة الأولى ، وعماقليل سيرتاحون في الجزيرة ، وفي الصباح سيستأنفون الصيد الكبير للحيوانات البحرية . وعقب الصيد سيعودون ، دون ابطاء ، إلى بيوتهم فوراً . كل شيء كان يجري

على ما يرام .

والقارب ما يزال يبحر كالسابق غائصاً في الامواج . والعجوز
أورغان يوجه المركب جالساً على مؤخرته وهو يدخن غليونه ، وربما
كان يفكر بسمكته - المرأة . وامريين وميلغون كانا يجذفان بمهارة ،
ويلوحات بالمجازيف بشكل يبدو معه الأمر سهلاً وبسيطاً ، كانا
يجذفان بجمال ، بينما يتأمل كيريسك الصيادين من غير ارادة منه .
وبنوع من الاهتمام الصبياني المفاجيء صار ينظر في تلك اللحظة إلى
كل واحد منهم على حدة . لقد احبهم دون ان يدرك ذلك ، وأحس
بالفخر لانه يوجد معهم ، في هذه الساعة ، مبحراً .

ولم يكن كيريسك ليستطيع تصور هؤلاء الناس على غير الصورة
التي هم عليها . والعجوز أورغان كان دائماً وفي كل الاوقات العجوز
اورغان ذا الحنجرة البارزة والرقبة الطويلة ، والايدي الطويلة المعقدة
كالجذور والعينين الدامعتين دائماً والمتذكرتين . وهل يمكن ان يكون
غير هذا؟ وهل يمكن ان تكون الحياة بلا وجود عجوز ، بلا هذا
الانسان الذي يحترمه الجميع . عجباً ، وهل يمكن ان يكون هذا؟

تؤكد الوالدة بأنه ، (اي كيريسك) ، يشبه والده كثيراً ، وانه عندما
سيكبر سيكون امريين . وتقول ان عيونه نفسها عيون امريين ، عسلية
بلون البلوط ، واسنانه دقيقة ومتينة ، كاسنان ابيه - السنان الاماميان
بيرزان قليلاً إلى الامام ، وتقول ان لحيته ستكون كلحية ابيه ، سوداء ،
قاسية وكثيفة . فليس عبثاً ان يسمى ابوه امريين الملتحي . وعندما كان
كيريسك اصغر مما هو الآن ، وعندما كان لا يزال يسبح عارياً في
الساقية ، كانت امه تنخس اختها في خاصرتها : انظري ، انظري ، مثله
تماماً . ففتغامزان على شيء ما ، ثم تضحكان حتى السقوط ،
وتتهامسان بخبث ، وكانت تقول أمه انه إذا كان نصيب كيريسك عندما

سيكبر، زوجة مثلها هي، فان هذه الزوجة لن تندم وستكون راضية .
فهي تعرف ذلك . وكان يفكر هو: غريب من هي التي ستكون راضية
وكيف؟ ولماذا ستكون زوجته راضية اذا كان شبيهاً بوالده .

ها هو يجلس في المقدمة ويجذف، اسود اللحية ابيض
الاسنان . كان عريض المنكبين، واثقاً من ذاته، ذا طبع مستقيم .
كيريسك لا يذكر ان اياه قد صرخ به أو اشفق عليه أو حماه، كغيره .
وعيناه فعلاً كانتا كبلوط ناضج، صافيتين براقيتين .

خلفه، عند زوج المجاذيف الآخر، كان يجلس ابن عمه
ميلغون، وهو اصغر من الوالد بستتين تقريباً . ومع أنه ان عمه، لكنه
بلا لحية تقريباً إلا ان له شاربين منتصبين كشاربي فرس البحر، وهو
نفسه يشبه فرس البحر . ميلغون يحب ان يتحدث وان يجادل اذا لاحظ
شيئاً ما، ليس كما يجب . وهو لا يتساهل في الالهانة، فمرة تشاجر مع
اجد التجار المتجولين، حتى ان الاسرة كلها كانت مضطرة للاعتذار
من التاجر وتطبيب خاطره . أما ميلغون فلا، ولا بأي شكل . بالرغم من
قصره واستدارته كالارومة، كان يصرخ ويقول: سأثبت له الحقيقة .
كان مخموراً، وهو من محبي هذا . حاول عدة اشخاص ومنهم امرائين
ان يقيدوه، لكن ذلك كان صعباً . لقد كان قوياً كالذب . انه بالنسبة
لكيريسك آكي ميلغون* . وهو صديق لوالده، يذهبان للصيد معاً،
لانهما لا يخونان بعضهما وكلاهما صياد جيد . ابن ميلغون لا يزال
صغيراً جداً - لقد تعلم لتوه الركض - وعنده ابنتان اكبر . كيريسك لا
يسمح لاحد بازعاجهما، فليجرب احد ان يلمسهما . وام كيريسك

* آكي - تستخدم لمنادة القريب الكبير (العم ميلغون) .

تفتدي هاتين الفتاتين بروحها. وغالباً ما تأتيان إلى بسولك للعب معها.

اجمل واحدة بين البنات هي موزلوك، ولكنهم، مع الاسف، يقولون انهم سيزوجونها عندما ستكبر إلى الناس المجاورين. وربما يقررون عدم ابعادها.

نادراً ما كان كيريسك يفكر على الشاطيء بمثل هذه الأشياء، أما الآن، في البعد، فكل شيء عادي يحوز، بالنسبة له، على معان لم تكن مرئية من قبل.

وفجأة انتابته رغبة شديدة بالعودة إلى البيت، إلى هناك، حيث تنتصب خلف جبل الكلب الابلق، في وادي النهر، على تخوم الغابة بيوت النيفخيين الساحليين ابناء السمكة - المرأة. لقد انتابته رغبة شديدة هذه الساعة بالذهاب إلى امه، لدرجة ان قلبه قد انقبض. ولكنهم كانوا بعيدين جداً عن الشاطيء الحبيب، عن الكلب الابلق الراكض ابدأ لقضاء حاجاته على حافة البحر الابدئي، واستدار كيريسك كما لو انه يتأكد من ذلك، وبينما هو ينظر حوله رأى شيئاً غير متوقع.

جدار رمادي اللون من الضباب الكثيف كان يتجه نحوهم، في البحر، كلسانين متلاصقين، حجبا نصف الافق تقريباً. كان الضباب يقترب بشكل ملحوظ وهو يتصاعد بعنف من سطح الماء الاسود، مصراً على الانتشار في كل الفراغ المحيط. كان يدنو وكأنه مخلوق حي، وكأنه تنين يسعى إلى هدف لا رجوع عنه، وهو القبض عليهم وابتلاعهم مع القارب وكل العالم المرئي وغير المرئي. كان الضباب آتياً من تلك الجهة: التي رأى فيها كيريسك شيئاً ما غير معروف، وهو كتلة مادية مستمرة في البحر، ظنها عن بعد جزيرة. والأآن ترحف كل

هذه الكتلة، متضخمة ومنتفخة على مرأى منهم، بلا ضجيج ولا توقف، تدفعها الرياح نحوهم .

- انظروا، انظروا - صرخ كيريسك فرعاً .

ذهل الجميع، وتلجج القارب على الامواج في لحظة قصيرة ظل بها دون توجيه . وفي نفس اللحظة تنامي اليهم صوت رهيب لموجة عظيمة، اندفعت من تحت الستار الضبابي الكثيف . كانت الموجة تسير متدحرجة، يرافقها هدير الماء الهائج المتعاطم، منتفخة متضخمة ومتهدمة في نفس الوقت .

- غير الاتجاه - صرخ اورغان يائساً - وجه الرأس اليها .

وما كاد المجذبان يتمكنان من توجيه القارب لمقابلة الموجة، حتى كادت صدمة العاصفة الأولى ان تقلب قارب اورغان . كانت الموجة تندفع مخلقة في اثرها غضب البحر . عندها حل الضباب . وعندما لم يبق بينهم وبين مقدمة الضباب المجتاح إلا القليل، صار واضحاً تماماً للنظر، بأي عنفوان متجههم، وبأي تصميم شرس واندفاع كلي كان يتحرك هذا الظلام الحي المتصاعد
كان الوقت كافياً ليصبح اورغان :

- تذكروا اتجاه الريح . . تذكروا اتجاه الريح . .

وغرق كل شيء في ظلمة تامة . وانهال الضباب كالسيل فاغرقهم في هوة لا قرار لها من الظلام . وفوراً، في لحظة واحدة، انتقلت عيونهم من عالم إلى عالم . لقد اختفى كل شيء . منذ هذه اللحظة لم يعد هناك لا سماء ولا بحر ولا قارب، حتى انهم لم يكونوا يميزون وجوه بعضهم البعض . ومنذ تلك اللحظة لم يعودوا يعرفون الهدوء، فقد هاج البحر . كان النوء يلقي بالقارب للأعلى تارة وتارة إلى الأسفل، مرة يقذفه إلى فوق، ومرة يلقي به في هوة متشكلة بين

موجتين . فابتلت ثيابهم وثقلت من الرذاذ والماء المتطير . لكن العطامة الكبرى في ان الرجال لم يستطيعوا في هذا الضباب الكثيف تمييز شيء حولهم ، ولم يكونوا يرون شيئاً ، ولم يستطيعوا معرفة ما يجري في البحر ، وماذا يجب عليهم ان يعملوا . ولم يبق لهم إلا شيء واحد : الكفاح حسب التقديرات على غير هدى ، فقط لمجرد الحفاظ ، بآية طريقة كانت ، على القارب متزناً فوق سطح الماء والحيلولة دون انقلابه . لا يجوز الآن الكلام عن هدف يوجه اليه القارب . كانت الامواج تحمله حسب هواها الجامع إلى مكان مجهول ولأمد مجهول . سبق ان سمع كيريسك ، عن حوادث وقعت . كان الصيادون يتعرضون فيها لسوء الطقس في البحر ، وكان يحدث ان يختفوا ابدًا ، عند ذلك كانت النساء والاطفال ، اثناء الحداد العام ، يشعلون النار على صخور الكلب الابلق لايام طويلة ، في انتظار يائس : ربما . ولكنه اذ ذاك لم يكن يستطيع ان يتصور ولو تقريباً كم هو مخيف ووحشي هذا - الموت في عرض البحر ، والأكثر من ذلك فهو لم يكن يتصور ان هذا الضباب المسالم ، زائر الشتاء الصامت ، الذي كان يحب ظهوره كثيراً ، عندما تبدو الاشياء الأرضية ، كانما هي تطير كالاشباح معلقة في الهواء . وعندما تمتليء النفس بشعور القلق المخيف والاسترخاء اللذيذ ، في انتظار شبح اسطوري . لم يكن يتصور ان هذا الضباب يمكن ان يتحول إلى عدو رهيب طاغ على كل شيء . كانت زوابع الضباب المظلمة الملتفة الزاحفة ، المتباعدة احياناً والمتقاربة احياناً ، السابحة على سطح هذا البحر العابت تذكر بحركة الأفعى .

والتصق كيريسك بتشنج بساق أورغان ، متشبثاً بالمقعد من الخوف .

- تمسك بي ، تمسك بقوة، صرخ أورغان في اذن كيريسك ولم يستطع ان يقول أو يفعل من اجل الصبي اكثر من ذلك .

ولم يكن احد ليستطيع ان يخفف من روعه، اذ انهم جميعاً كانوا متساويين امام الطبيعة الهائجة . حتى لو صرخ كيريسك أو انفجر بالبكاء ، أو صار يستنجد بابيه ، فما كان امرايين ليتحرك من مكانه، اذ ان القارب يحتفظ بتوازنه فقط لانه وميلغون يوازنانه جاهدين بالمجاديف، متوقعين سلفاً كيفية دفع الامواج وتراجعها .

الامواج كانت تحمل القارب دون توقف إلى لجة ظلام الضباب الكثيف . بينما كان اورغان لا يزال يحاول توجيه القارب بواسطة الدفة، كي يحافظ على الثبات، ولكن كلما ابتعدوا كانت العاصفة تزداد شدة . ربما يكون منتصف الليل قد حل، فمن الصعب، في هذا الظلام تحديد مرور الزمن . ولم يكن بإمكانهم ان يتأكدوا من حلول الليل، إلا بواسطة الظلام الدامس المكتشف . وفي هذا الظلام مروقت طويل من الصراع المستمر المرهق غير المتكافيء، اليائس تقريباً من ايجاد مخرج . ومع هذا فقد ظل النيفخيون صامدين، ولم يفارقهم الأمل اليائس، في ان العاصفة قد تهدأ، قد تهدأ فجأة، مثلما بدأت، وفي ان الضباب سيتشتت . عندها سيتمكنون من التفكير فيما سيحل بهم بعد ذلك . وفجأة بدا هذا الأمل بالتحقق تقريباً . ففي لحظة ما بدت العاصفة وكأنها تتجه نحو الخمود، وبدأت شدة التآرجح بالانخفاض، وهدأ تطاير الماء والرذاذ، لكن الظلام ظل يلفهم كما كان، كثيفاً حالك السواد . أول من اعطى صوتاً تغلب على ضجيج البحر كان اورغان :

- هذ انا وكيريسك معي ، هل تسمعاني؟

فيجيب امرايين بصوت ابح :

- نسمعك، نحن في مكاننا .

صرخ اورغان :

من يتذكر اتجاه الريح؟

اجاب ميلغون صارخاً بغضب :

- وما نفع ذلك .

سكت العجوز . فعلاً لم يكن اتجاه الريح بالنسبة لهم الآن ليشكل شيئاً . فإلى أين حملتهم العاصفة، واين هم : بعيدون أم قريبون من الجزر القادرة على ان تكون نقطة علام لهم . كل ذلك كان من الصعب تحديده . بإمكان العاصفة ان تحملهم بعيداً ، لدرجة انهم لن يستطيعوا ابدأ ايجاد «اضرعهم» . سكت مقهوراً بالظلام واهتزاز الموج . سكت اورغان العظيم وغاص في تفكير ثقيل . الشيء الوحيد الذي يمكن اعتباره حظاً جيداً ، هو ان يكونوا قد مروا ، حسب مشيئة القدر، من امام الجزر ونجوا من التحطم على صخور الشاطيء . ولكن بلا جزر وبلا نجوم ، وسط الليل والضباب ، لا توجد أية طريقة للتحديد . لقد كان اورغان عاجزاً عن قول شيء ، ومع ذلك صرخ بعد قليل من الوقت :

- كانت الريح تلانغي - لا* ، عندما اتجهنا نحوها بمقدمة القارب .

ولم يجبه أحد بشيء . فلم يكن المجذفون مستعدين للاجابة . وسكت اورغان من جديد . بينما كان كيريسك الملتصق بساقه يرتجف بكل اوصاله . عندها نبه اورغان المجذفين :

- سننضح أنا وكيريسك الماء ، أما انتما فاصمدا .

* تلانغي - لا : ريح بحرية جنوبية وشرقية ، شديدة وباردة .

انحنى نحو كيريسك وتلمسه في الظلام وقال له ، بعد ان تأكد ان الصبي سليم :

- كيريسك ، لا تخف . هيا ننضح الماء ، وإلا كان حالنا سيئاً .
ليس لدينا إلا سطل واحد ، ها هو ، لقد وجدته ، أما انت فخذ الطاس .
انه مع ذلك احسن . . هل امسكته ؟ امسك بالطاس اقول لك . . .
- نعم اتكيتشخ ، امسكته . هل سيطول هذا ؟ انا خائف . . .
- وأنا خائف ايضاً - اجابه الزعيم أورغان - لكننا رجال وهذا مكتوب علينا .

- أولن نغرق ، اتكيتشخ ؟

- لن نغرق ، واذا غرقنا ، فيعني ان هذا ما يجب ان يكون . والآن هيا ، تمسك بي باحدى يديك ، وباليد الأخرى انضح الماء واقذف به .

من الجيد ان اورغان تنبه إلى ذلك في الوقت المناسب ، وقد استفادا من فترة الهدوء القصيرة واستطاعا افراغ القارب من الماء الذي تجمع فيه . وفي الوقت الذي كانا يعملان فيه بشكل عشوائي ، وكانا ينضحان الماء ، لفت أورغان انتباه كيريسك إلى البرميل الصغير الذي شربوا منه في النهار . وقال له وهو يمسكه بيده :

- كيريسك ، ها هو برميل مائنا . اتحس به ؟ تذكر ، مهما كلف الأمر يجب ان تحافظ عليه . امسكه التصق به ولا تفارقه . وفي اسوأ الاحوال الافضل ان نموت من ان نظل بدونه . اتفهمني ؟ لا تعتمد على أحد ، اسمع ؟ . . .

حسن انه قال هذا ، وحسن انه نبه الصبي في الوقت المناسب ، فقد ظهرت سريعاً فائدة ذلك .

بعد ان هدأت العاصفة قليلاً ، عادت إلى الهياج من جديد ،

وفي هذه المرة بشكل اقوى واشد ، وكأنها تستغل جثوم الليل وضعف الناس ، الذين لا يرون شيئاً في الظلام والضباب . في هذه المرة كانت الامواج تنهال بنوبة جديدة من العنف ، وكأنها بحق ، تثأر لفترة الهدوء القصيرة التي استفادوا منها . دار قارب اورغان والتف بين الامواج غير المرئية ، التي تتقاذفه صدماتها ، بلا رحمة ، وتلقي به إلى كل الاتجاهات . وملاً الماء المتطاير القارب ، وغاص المركب تحت وطأة الماء ، واروغان كان يبذل جهده ، مع سطله ، زاحفاً على ركبتيه ليتمكن من نضح الماء المتدفق ، ولكن دون جدوى . عندها صرخ المجذفون غضباً ويأساً .

- ارم بكل شيء . : اننا نغرق . . ارم .

وبكى كيريسك بصوت عال من الخوف ، لكن احداً لم يسمعه ، ولم يكن لدى احد الوقت للاهتمام به . وقبع الصبي في زاوية مؤخرة القارب متمسكاً بشدة بالبرميل تحته . لقد وضعه تحت خاصرته وانحنى عليه ، متوقفاً بتشنج ، يهزه التشنج . كان يذكر ان هذا هو اهم عمل يجب ان يقوم به مهما حدث ، كان يدرك انهم يغرقون ولكنه في هذه الاثناء كان يفعل ما قاله له الزعيم اورغان ، كان يحافظ على برميل الماء .

كان من الواجب انقاذ القارب نصف الغارق بسرعة . ميلغون استمر في تحريك المجاذيف بشكل جنوني ، ومحاولاً باقصى جهده منع القارب من الانقلاب . أما اورغان وامرايين فكانا يرميان بكل ما كان على القارب خارجه . لم يكن هناك من مخرج آخر . وقذفا ببندقيتي السونيشيستير إلى البحر وبالحرية والحبال وبكل الأشياء الأخرى ، حتى انهما القيا بابر يق اورغان التنكي الذي يحضر فيه الشاي . اصعب الأمور كان القاء جثة الفقمة . اذ لم يستطيعا التمكن

من جثتها الملساء الرطبة الثقيلة . كان عليهما رفعها من قاع القارب وقلبها إلى خارجه - كان عليهما ان يرميا الصيد - وهو ما خرجوا مبحرين إلى الجزء المهجورة من اجله . بمرافقة الاصوات الفظة المبحوحة وصرخات الشتم واللعنات ، حملا الجثة بصعوبة كبيرة إلى حافة القارب ، والقيام بها اخيراً إلى البحر . في هذه الفوضى والارتباك ، وفي غمار هذه المصارعة مع البحر صار واضحاً الشعور بخفة اهتزاز القارب ، الذي تخلص من حمل الفقمة . وربما يكون هذا ما انقذ الوضع .



كان اورغان أول من استيقظ . في الفراغ الابيض الميت لم يستطع ان يستوعب مباشرة اين هو وماذا يعني هذا السكون العكر الكثيف حوله . لقد كان هذا ضباباً .

لقد كان ذلك ضباباً عظيماً ، كان اذ ذاك يجثم بصمت وتماسك ، بلا منازع فوق فراغ المحيط كله . ضباب عظيم يعيش سكونه العظيم .

عندما اعتادت عينا العجوز اورغان استطاع ان يميز في الظلام هيكل القارب ثم صار يميز الرجال . امرابين وميلغون ملقيان في مكانهما قرب المجاذيف ، وقد انهكتهما عاصفة الليل وعذبتهما حتى درجة الموت . كانا ملقيين باوضاع غريبة ، وكأنهما مجندين ، ولم يكن يدل على انهما احياء إلا شخيرهما الصافر المتلاحق . كيريسك كان يتكور عند قدميه ، مائلاً على البرميل . كان يرتجف في نومه لشدة الرطوبة والبرد . اشفق عليه اورغان ، ولكنه لم يكن ليستطيع مساعدته بشيء .

كان اورغان جالساً على مؤخرة القارب ، مشدوهاً مما عاناه في

الليل، مطاطئاً رأسه الاشيب. كل جسده كان يؤلمه، وذراعان المليئتان بالعقد كانتا تتدليان كحبلين. لقد عاش اورغان في حياته الكثير من المصائب والتجارب، ولكنه لم يعرف - حتى هو - حادثاً بمثل هذه القسوة. لم يكن يتصور اين هم الآن، وإلى اين قذف بهم النوء، كم يبعدون عن الأرض، وهل هم في البحر أم في عرض المحيط. حتى انه لم يكن يتصور كم مر من الزمن حتى تلك الساعة. في هذا الضباب الكثيف المتماسك الراكد لم يكن من الممكن تمييز النهار من الليل. ولكن على الاغلب، واخذاً بعين الاعتبار ان العاصفة تهدأ عادة في الصباح، فالآن نهار، وربما بعد الظهر.

مع ذلك، ورغم فرحه، لكونهم ظلوا احياء بمعجزة، فقد كان لدى اورغان ما يطأطيء رأسه لاجله. فبعد ان فقدوا كل ما كان معهم اثناء الابحار، حتى البنادق التي حصلوا عليها من تجار متجولين لقاء مئات من فرو السمور، ظلوا الآن في القارب مع زوجين من المجاذيف وبرميل صغير فيه قليل من الماء العذب. ماذا كان في انتظارهم؟ طبعاً، عندما سيعود المجذفان إلى وعيهما، سيفكرون معاً بما عليهم ان يفعلوه، ولكن من سيدلهم إلى الاتجاه الذي يجب ان يتحركوا فيه؟ هذا أولاً. وثانياً اذا انتظروا الليل، واذا انقشعت الغيوم من السماء ستكون ممكنة محاولة التحديد بواسطة النجوم. ولكن كم سيطول ابحارهم؟ كم من الوقت والجهد سيحتاجون؟ هل سيصمدون وهل سيستمررون؟

والضباب، ما هذا الضباب؟ يجثم على البحر كثيفاً وراكداً. وكأنه وقف هنا إلى الأبد. ايعقل ان الوضع هكذا في كل مكان، ايعقل ان العالم كله غارق في هذا الضباب؟

شعر برغبة بالتدخين والشرب. لكن لا ضرورة للقلق بشأن

التدخين - فالتبغ الذي بقي معه تبلل كله ، أما الغليون ، فلا يعلم اين اختفى . والماء؟ والطعام؟ لقد فزع اورغان من التفكير بذلك . مازالت هناك امكانية للتحمل ، وما زال عدم التفكير ممكناً .

على سطح البحر كان يسود ركود الموت وسكون تام وهدوء كلي . والقارب كان يهتز اهتزازاً بسيطاً في مكانه ، لم يكن يدفع إلى أي اتجاه ، ولم يكن هو ليتحرك من تلقاء ذاته . والمجاذيف مرمية في الماء ، طافية بشكل عفوي على السطح . كان من الممكن فهم امرايين وميلغون . لقد بلغا درجة من الانهاك ، لم يستطيعا معها رفع المجاذيف إلى القارب ، فسقطا فريسة النوم كالاموات .

مع انعدام الريح المطلق غرق كل شيء في الظلام والسكينة . البحر ساكن والضباب ساكن والقارب ساكن . فلا دافع للاستعجال . ولا مكان يبحرون اليه .

اطبق اورغان عينيه باسى ، وغفا دون ان يلحظ ذلك ، واستيقظ عندما ايقظه كيريسك . هزه الصبي قائلاً :

- اتكيتشخ ، اتكيتشخ ، نحن نريد ان نشرب .

انتفض اورغان وفهم ان اقرباءه الثلاثة ينتظرون منه الفعل ، فهو الزعيم ، وفهم ان ارهب شيء قد بدأ : توزيع الماء . كان الضباب لا يزال كما هو كثيفاً وراكداً ، والبحر في سكينة تامة .



طيلة ما بقي من النهار كانوا يبحرون ببطء عبر الضباب بلا هدف ودون معرفة الاتجاه .

بعد ان عاد الرجال إلى وعيهم وادركوا وضعهم لم يعد من الممكن بقاؤهم في مكانهم .

وابحروا . ربما هم يقتربون من الأرض ، وربما ، على العكس ،
يبتعدون عنها . ومع ذلك ، ففي هذا كان يكمن وهم الحركة .

كل الآمال معقودة على تشتت الضباب . عندها سيتوضح كل
شيء . على كل حال سيكون من الممكن مشاهدة النجوم ليلاً اذا
انقشع الضباب . كان يجب التثبيت بالنجوم ، قبل أي شيء آخر .
هناك أمل آخر ، وهو الاصطدام بجزيرة ما . عندها سيسهل
الاسترشاد .

وهكذا صاروا يبحرون إلى لا أين : إلى الضباب طوال الوقت .
في هذه الاثناء أمر اورغان باعادة ترتيب المركب . فنضحوا بقايا
الماء من القعر حتى آخره ، لكي لا تخوض اقدامهم فيه . واجلس
اورغان كيريسك قربه في مؤخرة القارب لكي ينعم بالدفء إلى جانبه ،
ولكي ينشف بشكل اسرع . واعطى للجميع ماء بالتساوي . في المرة
الأولى اعطى لكل واحد طاساً ينقص ربه . فبعد الليلة العاصفة يجب
ان يشربوا حتى الارتواء ولو مرة واحدة . ولكن اورغان نبههم إلى انه من
الآن فصاعداً لن يشربوا إلا عندما يرى هو ذلك ضرورياً ، وبقدر ما
يسكبه هولهم . واثناء هذا خض البرميل من اجل زيادة الاقناع . كان
فارغاً حتى نصفه .

لقد حدث لهم مفاجأة سارة : عندما بدأوا بصب الماء ، وجدوا
خلف البرميل الصغير في زاوية المؤخرة تماماً ، تحت المقعد مخلاة
جلدية من فرو الفقمة ، فيها سمك مجفف . لقد القوا بالمخلاة الكبيرة
الحاوية على الطعام مع الأشياء الأخرى ، أما هذا الكيس الذي اعدته
زوجة ميلغون كزاد ، ظل ، مصادفة ، مكانه ، لانه كان تحت المقعد ،
خلف البرميل الصغير ، الذي عهد لكيريسك بالمحافظة عليه مهما كان
الأمر . الواقع ان هذه المزودة كانت مليئة بماء البحر ، ولم يكن من

الممكن أكل السمك: لقد تشرب بالملح كثيراً، إضافة إلى كونه مالحاً. ومع هذا فقد كان طعاماً. ولو كان يوجد ما يكفي من ماء الشرب، لكان هذا السمك مناسباً تماماً.

ولكن احداً لم يذق السمك حتى الآن خوفاً من العطش. الجميع كانوا ينتظرون شيئاً واحداً: متى سيزول الضباب. في صمت الضباب الساكن المطبق كانت تصر تعبة، المفاصل التي تتحرك بها المجاذيف. كان هذا الصرير وسط السكون الرهيب شبيهاً بتوسلات وصرخات تائه: اين أنا، اين أنا؟ إلى أين، إلى أين امضي الآن؟

الجميع كانوا ينتظرون شيئاً واحداً: متى سيزول الضباب. لكنه لم يزل ولم يكن ينوي الزوال. الضباب لم يتحرك. وكأن شيئاً عجيباً فوق الخيال، وكأن مخلوقاً ما آخر، غير ارضي، ذا انفاس رطبة خامدة، قد ابتلع الكون: الأرض والسماء والبحر. وحل الليل ثانية في احشاء الضباب. يمكن التأكد من ذلك بسبب الاسوداد الطاغي حولهم. ولا وجود لأية نجوم أو أية سماء في الأعلى. الابحار إلى مكان ما فقط لمجرد الابحار إلى مكان ما لم يعد مجدياً.

انتظروا وابتهلوا وآملوا ظهور النجوم في السماء. انتظروا ساعة بعد ساعة. انتظروا قدوم الريح، التي تطرد هذا الضباب الكريه الملعون ثلاثاً. ولم يناموا. واتجهوا بالصلوات إلى روح السماء لكي تكشف لهم صفحة السماء والنجوم ونادوا بابتهالاتهم ملك الريح، ليستيقظ وراء البحر، هذا الوحش ذا اللبدة والشعر الكثيف.

كل ذلك عبث. فما من أحد يسمع ابتهالاتهم. ولم ينقشع الضباب.

كيريسك ايضاً كان ينتظر ظهور النجوم . فهذه النجوم ، التي تشبه عادة اللعب المضيئة في السماء ، هي أقصى ما يحتاجه الآن . كل ما قدّر لهذا الصبي ان يحياه منذ المساء الفائت هزّه وأرهبه . وما أصعب ان تياس نفس طفل وتنكسر وتنهار إلى الأبد . لكن وجود ثلاثة رجال كبار معه في قارب واحد ، يهددهم جميعاً خطر مميت مشترك ، في حين كانوا يظنون ان رحلتهم اشرفت على الانتهاء . يصمدون في وجه تعسف الطبيعة الهائج ويحاولون تجاوزه ، كل ذلك أدخل إلى نفسه الأمل في ان طريق النجاة ، حتى الآن ، سيكتشف . كان يؤمن تماماً ، انه يكفي أن تظهر النجوم في السماء ، لتحل نهاية الآمهم .

ولكن ، لو يتم هذا بسرعة ، لو يعودون بسرعة إلى الأرض ، إلى هناك ، إلى الكلب الابلق ، بسرعة ، بسرعة ، لأنه كان متشوقاً جداً لأن يشرب ويأكل ، انه عطش وجائع لدرجة لا تطاق ، وكلما طال الوقت ازدادت رغبته في الشرب والأكل ، انه بشوق كبير ليعود إلى البيت ، إلى أمه وأقاربه ، إلى المساكن والدخان ، إلى السواقي والاعشاب .

قبع هؤلاء البؤساء الليل بطوله منتظرين ، لكن شيئاً لم يتغير . الضباب لم يتحرك من مكانه ، والنجوم لم تبد في السماء والبحر ما يزال غارقاً في الظلام .

الليل بطوله كانوا عطاشا ، كان الجو بارداً رطباً ، لكنهم كانوا يرغبون بالشرب قبل كل شيء . كان كيريسك يفترض انه الوحيد الذي يشعر بالعطش الشديد ، لكن الآخرين كانوا يعانون من الظمأ الذي لا ينظفي . هو كان بحاجة إلى الماء أكثر من الجميع . وهذا ما هزّه ، وهو انه كان بحاجة إلى الماء أكثر من الجميع .

لكن الزعيم أورغان لم يعط كيريسك الماء ، عندما طلبه هذا . قال اورغان بحزم : كلا ، ليس الآن ، انتظر .

ليت العجوز اورغان كان يعرف مدى ظمئه بعد السمك الذي بدأوا، ثلاثتهم هو والأب وميلغون - دون ان يستطيعوا الانتظار حتى نهاية النهار - بقضمه لشدة الجوع، وبالرغم من انهم شربوا ماء في اثر السمك، فان هذا لم يكن كافياً، وبعد وقت قصير شعروا بالعطش أشد وأقوى، لم يمس العجوز اورغان السمك وكابر جوعه، ولم يشرب كذلك، كان يقتصد في الماء فلم يسمح لنفسه بجرعة واحدة. في ذلك اليوم شربوا مرتين صباحاً ومساءً، باستثناء اورغان. في المساء شربوا القليل القليل. ما يغطي قعر الطاس. أما الماء في البرميل فصار يتناقص شيئاً فشيئاً.

وبينما كانوا يتشوقون للشرب والشرب، ثم الشرب، أصبح انتظار التغيرات أشد وطأة عليهم. وهكذا مرت الليلة طويلة. وطوال هذه الليلة كان الضباب الراكذ جاثماً بلا حراك والبحر أيضاً لم يهتز.



في الصباح لم تحدث أية تغيرات، سوى ان النور ازداد قليلاً في أعماق هذا الضباب الرمادي الاسمر، وصار المدى اوسع. الآن صار بالامكان تمييز الوجوه والعيون، وعلى مسافة أذرع حول القارب كان يبدو اللون الفضّي الثقيل لسطح الماء الراكذ كالزئبق. كيريسك لم ير قط مثل هذا الماء الراكذ من قبل. لا ريح ولا تغيرات.

في ذلك الصباح دهش الصبي جداً للتغيرات التي أصابت وجوه الكبار: فقد هزلت بشدة ونما شعر ذقونهم قاسياً، ومات بريق عيونهم، فغارت في حفر معتمة، وكأنها اصيبت بمرض مميت. حتى والده، وهو القوي الواثق من نفسه تغير كثيراً، ولم يبق منه إلا لحيته. فشفتهاء معضضة لدرجة الاسوداد وهو ينظر إلى كيريسك مشفقاً، مع انه

صامت ولا يقول شيئاً. اكثرهم تغيراً كان العجوز اورغان . فقد انحنى ظهر العجوز، وصار أكثر شيخوخة، وأصبحت رقبته التي برزت فيها حنجرتة اطول، وصارت عيناه دامعتين أكثر من السابق، ولم يبق مما كان عليه اورغان إلا نظراته . نظرة الزعيم الحكيمة الصارمة التي كانت تنطوي على شيء ما هام لا يدركه ولا يفهمه احد سواه .

ابتدأوا نهارهم بأصعب الأمور بتقسيم بعض جرعات المياه فيما بينهم . اورغان كان يسكب بنفسه . أمسك برميل الماء تحت ابطه، وصار يسكب الخير على قعر الطاس خيطاً رفيعاً، بينما يده ترتجف بشدة . قدّم الماء أولاً لكيريسك وكان كيريسك ينتظر ذلك بفارغ الصبر . فأطبق بأسنانه على حافة الطاس، وابتلع الماء . ولم يحس إلا للحظة واحدة كيف ترطب وهمد القيقظ في جوفه، وكيف ضج رأسه بتأثير ذلك . وما كاد يعيد الطاس حتى عاد اللهب إلى الاشتعال كالسابق، بل أكثر، وكأنه اثار هياج وحش في داخله . بعد ذلك شرب ميلغون ثم امرايين . لقد كان النظر اليهما وهما يشربان مخيفاً . كانا يمساكان الطاس بأيدي مرتجفة ويعيدانه دون ان ينظرا إلى اورغان وكأنه هو المذنب في قلة ماء الشرب . وعندما حان دور اورغان بالشرب لم يسكب لنفسه نقطة واحدة، وأغلق السدادة بصمت . وبدأ هذا لكيريسك امراً غير معقول . فلو كان البرميل بين يديه لسكب لنفسه طاساً كاملاً ولسكب وشرب وسكب وشرب حتى سقط، وليحدث بعد ذلك ما يحدث . الذي ان يشرب حتى الارتواء ولو مرة واحدة . أما العجوز فقد حرم نفسه حتى من حصته، حرم نفسه من هذا القليل في قعر الطاس .

ولم يطق امرايين هذا، فقال بصوت مبحوح وهو يضبط نفسه :
- لم هذا، اتكيتشخ، اسكب لنفسك كما للاخرين . امس لم

تشرّب ايضاً. اذا كان الموت فلنمت سوياً.

فأجاب اورغان دون انزعاج:

- بامكاني ان استغني عن ذلك.

فعلا صوت امرايين:

- كلا، هذا غير صحيح. ثم اضاف بانفعال: اذن وانا لن

أشرب.

- عم تتحدث؟ لا شيء هنا لنشربه - وضحك اورغان -، يالكم

من مخطفين وهز رأسه بهدوء، وعاد ففتح البرميل وسكب ماء في قعر

الطاس وقال:

- فليشرب كيريسك عوضاً عني.

ارتبك الصبي، وصمت الجميع، ومد اورغان له يده بالطاس.

- هاك، اشرب ياكيريسك ولا تفكر بشيء.

وصمت كيريسك.

قال ميلغون: اشرب.

وقال له امرايين: اشرب.

وقال العجوز اورغان: اشرب.

وتردد كيريسك. كان يريد وهو يموت عطشنا ان يقلب إلى فمه

هذه الجرعات القليلة من الماء، لكنه لم يجروء.

كانت يد اورغان ترتجف مع هذه الكلمات، فتنفس الصعداء.

ولانت نظراته التي توجهت إلى الصبي شاكرة ملاطفة.

- فأنا، أه، لو تعلم، كم شربت من الماء في حياتي، أما أنت

فعليك ان تعيش طويلاً لكي . . . - ولم يكمل العبارة - هل فهمتني

ياكيريسك؟ اشرب، هذا ضروري فأنت يجب ان تشرب، ولا تقلق

علي. هاك.

وللحظة واحدة، احس الصبي ثانية، وهو يتلع الماء كيف ترطب وخمد الحر في داخله، ومن جديد، وفي اثر هذا الارتياح فوراً شعر بحاجة ماسة للشرب. في هذه المرة أحس ان طعم الماء العفن بقي في فمه، لكن هذا لم يكن ذا اهمية. المهم ان يكون هناك ماء، أي ماء كان، شرط ان يكون صالحاً للشرب. بينما يقل الماء في البرميل أكثر وأكثر.

سأل اورغان متوجهاً بذلك إلى ابناء عشيرته: ما الحل وماذا سنفعل؟ هل سنبحر؟

وحل صمت طويل. الجميع كانوا ينظرون حولهم، ولكنه لم يكن يوجد في البحر على بعد ثلاثة أذرع حولهم إلا الضباب الكتيم. وحطم امرايين الصمت، اذ قال متنهداً:

- إلى أين نبحر؟

وفجأة انفجر ميلغون لسبب ما:

- ما معنى: إلى أين؟؟ سنبحر، ان نبحر خير من ان نفطس في مكاننا.

فحاججه امرايين:

- وما الفرق ان نبحر أو لا نبحر؟ في هذا الضباب نبحر إلى لا أين. ما الفرق؟

وبتحد. أكبر اعترض ميلغون:

- انا لا يهمني الضباب، لا يهمني ضبابك هذا، مفهوم؟ سنبحر، وإلا فسأقلب الآن هذا القارب اللعين رأساً على عقب، ونذهب جميعاً لنطعم السمك، افهمتني يا امرايين الملتحي، سنبحر، أفهمت؟ واربتك كيريسك. لقد اخجله اكي ميلغون، الذي تصرف بشكل غير لائق، فهو، على كل حال، اصغر من أبيه. هذا يعني ان

شيئاً قد تضعضع ، ان شيئاً ما قد اختل فيه أو فيما يمثله هؤلاء
النيفخيون الاربعة الآن في هذا القارب . صمت الجميع مسحوقين
مقهورين ، وسكت ميلغون نفسه وهو يتنفس بأنفاس صاحبة . وأطرق
امرايين ، بينما صار العجوز أورغان ينظر إلى مكان ما بعيد ، ووجهه
كتيم ، كذلك الضباب الذي كان يحيق بهم من كل الجهات كغشاء
أصم .

اخيراً تكلم امرايين :

- هدىء من روعك ياميلغون . فقد قلت ذلك لمجرد الكلام .
طبعاً ان نتحرك أفضل من ان نظل في مكاننا . انت محق ، هيا نبحر .
وتحركوا ، وعادت مفاصل المجاذيف للصرير من جديد ،
وعادت المجاذيف لترتفع وتنزل والماء ينشق بصمت ويعود ليحكم
الحلقة حول القارب دون ان يترك أثراً . لكن الانطباع كان يبدو وكأنهم
يقفون في مكانهم ولا يتحركون . ومهما كانت المسافة التي يقطعونها
كبيرة ، كان الضباب يحيط بهم ، وكأنهم في دائرة مسحورة ، وهذا ما
أخرج ميلغون ثانية عن طوره .

- أنا لا يهمني ضبابك ، أسمعني يا امرايين الملتحي - قال هذا
وهو يرتعش ثم اضاف - وأنا أريد ان نبحر ، تحرك ايها اللحية ، جذف .
لا تنم ، اسمع ؟ أنا لا يهمني ضبابك .

مع هذا الكلام صار ميلغون ينحني اكثر فوق المجاذيف ويلح
مطالباً :

- هيا جذف . جذف .

ولم يشأ امرايين ان يغيظه ، ولكنه ، وقد استفزه ميلغون ، دخل
هذه اللعبة المجنونة .

وصار القارب يكتسب سرعة أكبر وأكبر ، وصار يطير متهوراً ،

على دفعات متلاحقة عبر الضباب، إلى مكان مجهول وإلى هدف غامض، وامرأين وميلغون يجذفان بوحشية، دون ان يتراجع احدهما أمام الآخر، ويعنف وحشي جنوني هائج، وكأنهما كانا قادرين على تجاوز الضباب والانعقاد من حدوده غير الموجودة.

كانت تظهر الواح المجاذيف وهي تنثر بشكل منحرف الرذاذ المتطاير، والماء يضج على جانبي القارب، ووجها المجذفين المتشنجان ينخفضان ويرتفعان مخضبين بالعرق، اذ ينحنيان تارة متهاويين ملقيين بالمجاذيف، ويتصبان تارة أخرى بقوة وهما يسحبان المجاذيف في الماء.

شهيق تارة وزفير أخرى، شهيق تارة وزفير أخرى... شهيق، زفير، شهيق، زفير...

ضباب في المقدمة، ضباب في الخلف، ضباب في كل جانب.

وصرخ ميلغون وكأنه يخور، متحرشاً ومستفزاً الشر:
- خانا، خانا*.

انتعش في البداية كيريسك مأخوذاً بوهم الحركة، ولكنه فهم، فيما بعد، عبثية ورهبة هذا. كان الصبي ينظر جزعاً إلى الزعيم أورغان، منتظراً أن يوقف هذا الأخير هذا السباق الابله، لكنه كان يبدو غائباً. كانت نظرتة المتأمللة شاردة في مكان بعيد، وقد جمدت على وجهه ملامح الزهد. وكان وجهه مبتلاً أما لأنه كان يبكي أو بسبب عيونه الدامعة عادة. كان يجلس على المؤخرة لا حراك وكأنه لا يرى ما يحدث.

* خانا: تعني هيا.

وسار القارب اهوج، جارياً عبر الضباب، إلى مكان مجهول
ولغاية غير معروفة.

ودوت في الضباب صرخة يائسة:

- خانا، خانا، خانا، خانا.

واستمر الحال كذلك طويلاً جداً، لكن المجذفين صاروا يلهثان
بالتدريج، وتناقصت السرعة شيئاً فشيئاً، وسرعان ما ارخيا المجاذيف،
وصاروا يلتقطان انفاسهما التقاطاً صاحباً، وكأنهما يختنقان. ولم يرفع
مبلغون رأسه.

وهكذا حلت فترة الوعي المر. لم يستطيعا اجتياز الضباب، ولم
يقفزا خارج حدوده، وبقي كل شيء على حاله: سطح الماء الساكن،
والغموض التام، والظلام الكثيف الكتيم. ظل القارب وحده يتحرك
بعض الوقت ويدور بقوة اندفاعه الذاتية.

لماذا فعلوا ذلك؟ ما الداعي؟ ولكن ماذا كانوا ليربحوا لو ظلوا
في مكانهم؟ ايضاً لا شيء.

كل واحد كان يفكر بذلك. عندها قال أورغان:

- استمعوا الي الآن - كان ينطق الكلمات ببطء، وربما كان
يقتصد في بذل قواه، فهو لم يشرب ولم يأكل لليوم الثاني - قد يظل
الضباب اياماً أخرى كثيرة، فمثل هذه الاعوام ممكنة، وقد يقع مثل
هذا حيث يمكن ان تمر - كما تعرفون - سبعة، ثمانية، بل عشرة ايام
والضباب جاثم على سطح البحر، كما يجثم الوباء اذا حل في منطقة،
أو كالمرض لا يذهب إلا بانقضاء مدته. أما ما هي مدته فلا أحد
يعرف. اذا كان هذا الضباب من ذلك النوع، فان مصيرنا صعب. فلم
يبق من السمك إلا القليل، وما نفعه اذا لم يكن معنا ماء، وماؤنا ها
هو، وخض البرميل بما يحتويه، فتحرك فيه الماء بسهولة وهو يعلو قعر

البرميل سماكة كف ، أو كف ونصف .

وسكت الجميع ، وسكت العجوز: لقد ادرك الجميع ماذا كان يريد ان يقول: شرب الماء مرة واحدة في اليوم وفي قعر الطاس ، لكي يصمدوا وقتاً اطول ، اذا ما استطاعوا ان يتغلبوا على الضباب وان ينتظروا انقشاعه . وعندما ينكشف البحر وتظهر النجوم أو الشمس سيصبح الأمر واضحاً ، ربما يحالفهم الحظ ويصمدون حتى اليابسة . هذا هو الحال . ولا يمكن ان يكون هناك مخرج آخر ، ولكنه من السهل القول: تحملوا . ما يتقبله الانسان بعقله ، لا يتقبله جسمه دائماً . لقد كان هؤلاء البؤساء يتحرقون رغبة في الشرب حالاً ، وليس شرب القليل ، بل شرب الكثير . كانوا يريدون ماء كثيراً .

كان أورغان يفهم ان لا مخرج من هذا الوضع ، وكان يتألم أكثر من الجميع . كان هذا العجوز يذوي بشكل ملحوظ . كان وجهه الأسمر الغامق الذي حفرته التجاعيد والاحاديد يزداد اسوداداً وقساوة ساعة فساعة بسبب الألم الآتي من داخله ، وظهر في عينيه الدامعتين تعبير قلق واضطراب . لم يكن من السهل على العجوز ان يحمل نفسه على تحمل هذه الالام . ولكنه مادام يحافظ على وجود الروح فيه ، فقد كان ثابتاً ، كما تثبت شجرة متموتة بجذورها . إلا انه لا يمكن ان يستمر الحال هكذا طويلاً ، كان من الضروري قول كل شيء ، كل ما قد يكون له معنى ، ولو أدنى معنى من أجل خلاصهم . وتابع حديثه :

- لقد كنت افكر بأن علينا دائماً ان نرقب وتنصت للريح ، ان نراقب قدوم آغو كوك* . وآغو كوك هي الطير الوحيد الذي يطير فوق البحر في هذه الفترة . فاذا كنا موجودين بين جزيرة ما والأرض ، فان

* آغو كوك: البومة القطبية .

طيران الآغو كوك قد يدلنا على الطريق . فأبي طير لا يطير في عرض البحر إلا بخط مستقيم ، ولا ينعطف ابداً ، يطير بخط مستقيم والآغو كوك كذلك .

فسأل ميلغون بتهكم دون ان يرفع رأسه :

- واذا لم نكن موجودين بين جزيرة ما والأرض؟

فأجاب أورغان بهدوء :

- عندئذ لن نراها .

واراد كيريسك ان يتأكد ، لماذا تطير آغو كوك فوق البحر وما غرضها من ذلك ، فسبقه ميلغون ، وقال ضاحكاً بغضب :

- واذا نسيت آغو كوك ان تحلق فوقنا ، يا اتكيتشخ ، وطاب لها ان

تحلق بعيداً ، هناك في مكان ما . عندئذ ماذا؟

فأجاب أورغان بهدوء ايضاً :

- وعندئذ لن نراها .

فغضب ميلغون مستغرباً :

- اذن لن نراها . هذا يعني انه مهما يكن من امر فلن نراها . اذن

فالسؤال لماذا نحن قابعون هنا؟

وازداد ميلغون غضباً ، فصار يتمتم ، ثم انفجر مقهقهاً ، ثم

صمت . الجميع كانوا مرتبكين ، فصمتوا وهم لا يعرفون ما العمل .

خلال هذه الفترة فكر ميلغون بشيء ما ، فاقطلع مجدافاً من

مكانه بضربة كف من الأسفل إلى الأعلى ، ثم صعد إلى مقدمة القارب ووقف عليه منتصباً بكامل قامته مستخدماً المجذاف للتوازن .

لم يقل له أحد شيئاً ، وهو نفسه لم يعب اهتماماً لأحد . وصرخ بغضب :

- هيه ، انت ياكلبة ، انت ياشامان* الرياح ، - كان يصرخ بكل

قوته في عتمة الضباب مهدداً بالمجذاف - اذا كنت ملك الرياح ولست

جيفة كلبة، فاين هي رياحك؟ أم انك فطست في وجارك ياكلبة، أم ان كلاب العالم انهالت عليك وانت لا تعرفين لمن منهم تستسلمين، أم انهم يجامعونك واحداً تلو الآخر، ياكلبة، ولا وقت لديك لتحريك الرياح، أم انك نسيت اننا هنا في هذا الضباب القاتل نقبع وكأنا في هوة؟ أم انك لا تعرف ان معنا صغيراً، فكيف هذا؟ أنا اقول لك، ان معنا صغيراً، وهو في البحر لأول مرة، وأنت تتصرف معنا على هذا النحو؟ هل هذا عدل؟ اجب اذا كنت ملك الرياح ولست براز فقامة عفن، ارسل رياحك، اسمع؟ خذي الضباب وضعيه تحت ذنبك . اسمعني؟** ارسل عاصفة، ياكلبة، اشد عاصفة . ارسل تلانغي - لا، ياكلبة، وتقاذفنا في البحر، ولتطونا الامواج، ايتها الكلبة القذرة، اسمع؟ اسمعني؟ أنا ابصق واتبول على سحتك الشعراء؟ اذا كنت ملك الرياح، أرسل لنا عاصفتك، اغرقنا في البحر وإلا فأنت اسفل كلبة، وأنا كلب، كلب آخر، ولكنني لن افعل . . ، هاك، هذه لك، خذي، خذي، عضي، عضي . .

وهكذا شتم ميلغون، بأفزع الكلمات، شامان، الذي لا يعرف أحد أين يوجد، ولا يعرف أحد اين يخبيء رياحه المأمورة، ونادى ميلغون وخرج عن طوره وصرخ كثيراً حتى البح والاعياء، ساخراً مهيناً وطالباً في الوقت نفسه الريح من ملك الرياح . ثم قذف بقوة بالمجذاف إلى البحر، وعاد ليجلس في مكانه، وانفجر فجأة في بكاء عال ومخيف وهو يدفن وجهه في كفيه . وصمت

* شامان - عند شعوب شمالي آسيا - الطبيب الساحر . من مختلف الاديان الوثنية المؤمنة بالارواح (المترجم) .

** في هذا النداء استخدمت معاً صيغتا التأنيث والتذكير، اذ يتوجه بالحديث إلى الملك الذي ينعتة بالكلبة (المترجم) .

الجميع عاجزين ، أما ميلغون فشرق بالكاء وهو يصرخ باسماء اطفاله الصغار . كيريسك ، الذي لم يرقط رجلاً يبكي ، صار يرتجف خوفاً ، فتوجه إلى أورغان والدموع تفيض من مآقيه :

- اتكيتشخ ، اتكيتشخ ، لماذا يبكي هكذا؟

- لا تخف - هدا العجوز الصبي وهو يضغط على يده - سينتهي هذا ، وسيكف قريباً ، أما أنت فلا تفكر بذلك . هذا لا يهملك . سينتهي هذا .

وفعلاً بدأ ميلغون يهدأ بعض الشيء ، لكنه لم يرفع وجهه من بين راحتيه ، بينما صار كتفاه يهتران بشكل تشنجي وهو ينشج . وقرب امرابين القارب ببطء من المجذاف الطافي على سطح الماء ، ثم دفع المجذاف نحوه والتقطه ، وركبه على المفصل في مكانه .

وقال امرابين متعاطفاً مع ميلغون :

- هدىء من روعك ياميلغون . انت محق ، الافضل ان نقع في عاصفة من ان نقبع في الضباب . لنتنظر قليلاً ، ربما ينكشف البحر فجأة . ماذا بيدنا ان نفعل؟

لم يجب ميلغون بشيء ، بل ظل يخفض رأسه أكثر وأكثر ، فصار يجلس منحنياً كمخبول يخشى ان ينظر أمامه .

والضباب لا يزال يخيم ساكناً ميتاً على المحيط ، غامراً العالم بعتمة عظيمة جامدة . لا رياح ولا تغيرات . فمهما استنهض ميلغون شامان الرياح ، ومهما وبخه وشمته ، فقد ظل هذا أصم عديم الحس تجاه كل ذلك ، حتى انه لم يغضب ، ولم يتحرك ولم ينهل عليهم بعاصفة .

كان امرابين يجذف بمجذافيه بهدوء لكي لا يقفوا مكانهم ، والقارب كان ينزلق على سطح الماء بشكل يكاد لا يلحظ . وصمت

أورغان وغاص في افكاره، ربما عاد - وقد يكون ذلك لآخر مرة في حياته - إلى التفكير بسمكته - المرأة.

وشغله كيريسك عن افكاره العجائزية المزعجة، وسأله بصوت منخفض:

- انكيتشخ، انكيتشخ، لماذا تطير آغو كوك إلى الجزر؟
- لقد نسيت ان أقول لك. في مثل هذا الضباب الكثيف، آغو كوك هي الوحيدة التي تستطيع التحليق فوق البحر. وهي تطير إلى الجزر لتصيد، فهي بين حين وآخر تلتقط صغار الفقمة. فان عينها ترى في الضباب وفي الليل المظلم، كما ترى في النهار ولذلك فهي بومة، أكبر وأقوى بومة.

وتتمم كيريسك بشفتين جافتين:

- لو كان لي مثل هذه العيون، لشاهدت الآن الاتجاه الذي يجب ان نبحر فيه، ولوصلنا بسرعة إلى الأرض، ولاخذنا نشرب ونشرب طويلاً وبنهم... لو كانت لي مثل تلك العيون.

وتنهذ أورغان:

- ايه، كل واحد اعطي عينيه.

وصمتما. وبعد فترة طويلة، وكأنما عادا إلى هذا الحديث قال أورغان ناظراً إلى وجه الصبي:

- أنت متضايق جداً؟ اصبر. اذا صبرت ستكون صياداً عظيماً.

اصبر يا حبيبي ولا تفكر بالماء، فكر بشيء ما آخر. لا تفكر بالماء. وحاول كيريسك مطيعاً ألا يفكر بالماء. لكن ذلك لم يتحقق له، فكلما حاول ألا يفكر بالماء، ازدادت رغبته بالشرب. كان يرغب ايضاً بالأكل حتى وصلت الرغبة إلى درجة جنونية. كان يريد ان يصرخ بسبب ذلك، كما صرخ ميلغون بوجه العالم كله.

هكذا مر ذلك اليوم . كانوا ينتظرون طوال الوقت . كانوا يأملون بأن يسمع فجأة من بعيد ضجيج الامواج، وبأن تهب عليهم الريح المنعشة، فتطرد الضباب إلى طرف العالم الآخر، وتفتح لهم طريق الخلاص . لكن الصمت كان يخيم على العالم، صمت ساكن مميت اغرق الرأس والاذنين . طوال الوقت كانوا، وبلا انقطاع، يحسون رغبة جامحة بالشرب . لقد كان هذا رهيباً: يموتون عطشا في وسط المحيط اللانهائي .

عند المساء اصبح حال ميلغون سيئاً . فلم يعد يتكلم ابداً واصبحت نظراته هائمة لا معنى لها . فاضطروا لأن يسكبوا له بعض الماء كي يبلل به حنجرته . لكن أورغان لم يحتمل وهو ينظر إلى كيريسك، الذي لم يستطع ان ينزع نظره عن الطاس، فسكب له قليلاً، ثم سكب لامرايين . أما هو فلم يضع في فمه نقطة واحدة . في هذه المرة، بعد ان وضع البرميل بما بقي فيه من ماء تحت المقعد، جلس طويلاً بلا حراك، مركزاً تفكيره بوضوح، ومشغلاً بافكار سامية، وكأنه لم يكن يعاني ابداً من أي عطش، ولا من أي عذاب جسدي . جلس على المؤخرة صامتاً رصيناً كصقر وحيد على قمة صخرة . كان يعرف ما سيتحتم عليه فعله، لذلك كان يختلي بنفسه ليحافظ على بقايا قوته لمواجهة آخر عمل في حياته . في تلك الساعة كان ينقصه غليونه . كان العجوز يرغب في ان يدخن وينفث الدخان للمرات الأخيرة، وهو يفكر بها، بسمكته - المرأة .

- أين تسبحين، ايتها السمكة - المرأة العظيمة؟

كان يعرف نفسه، يعرف إلى أي مدى ستكفيه القوة الرجولية وهو على عتبة النهاية . الشيء الوحيد الذي كان يؤخره عن تنفيذ ما عزم عليه هو كيريسك، الذي تعلق به في هذه الايام، والذي يلتصق بجانبه

طوال الوقت بحثاً عن الحماية والدفع . كان يرثي لحال الصبي . ولكن من أجله كان يجب المضي إلى هذا .
هكذا انتهى هذا النهار الطويل المحزن والأخير بالنسبة للزعيم أورغان .

جاء المساء ، وها هي ليلة أخرى تحل .
وفي هذه الليلة ظل الطقس كما كان بلا تغيير ، وغمر الضباب في البحر كل شيء بنفس تلك الحالة من الذهول الرصين . وزحف من جديد ظلام الليل الاصم ، وتبعته ليلة طويلة إلى درجة اللامعقول ، ليلة قاسية لا تطاق . ولكن ليت الريح تهب فجأة في هذا الليل ، ولتكن عاصفة ، ولتكن أي شيء آخر ، شرط ان تنكشف السماء وان تشاهد النجوم ، لكن الليل لم يوح بشيء ، ولم تلاحظ أية موجة على سطح الماء ، ولا أية نسمة هواء . كل شيء يرقد في سكون لا يزول وظلام لا ينتهي . والقارب الوحيد التائه في الظلام ، واناسه المنهكون ، الذين يقتلهم العطش والجوع يدورون في الظلام ببطء ، يواجهون القضاء المحتوم في عزلة تامة .

لم يذكر كيريسك تماماً متى غفا . ولكنه نام طويلاً ، وهو يرحح تحت عذاب العطش الذي لا يطاق . كان يبدو ، انه لن تحل ، إلى أبد الأبد ، نهاية هذه الآلام التي تنهشه حياً . كان بحاجة إلى الماء فقط . الماء فقط ولا شيء غير الماء ، فالاحساس بالجوع كان يخمد تدريجياً ، كآلم اصم يغور إلى الاعماق أما العطش فكان يشب بقوة أكبر كلما طال الزمن . ولا شيء يخمده .

تذكر كيريسك ، انه في طفولته ، عندما كان ، ذات يوم ، مريضاً مرضاً شديداً ، كان مستلقياً والعرق الحار يتصبب منه ، كان وضعه سيئاً ايضاً ، وكان يحس بالعطش . لم تكن أمه تبعد عن سريره خطوة

واحدة، كانت طوال الوقت تضع قطعة قماش مبتلة على جبينه الملهب. كانت تبكي سراً وتتمتم بشيء ما. وفي جو شبه مظلم، على ضوء المصباح الزيتي، وسط ضباب شاحب مرتعش كان ينحني فوقه وجه أمه المهموم، فوالده كان غائباً - كان في البحر - وكيريسك كان يريد ماء للشرب، وكان يريد عودة أبيه سريعاً. ولكن لم تتحقق رغبته. أبوه كان بعيداً، وأمّه لم تعطه ماء ليشرب، بل قالت له انه ممنوع من الشرب مطلقاً. وكانت تبلبل بخرقه صغيرة شفثيه الناشفتين، لكن هذا ما كان ليخفف من آلامه إلا للحظة واحدة. وتعود من جديد الرغبة بالشرب لتصبح غير محتملة.

كانت أمه تقنعه وترجوه ألا يشرب ماء، وكانت تقول، انه يجب ان يتحمل فيزول المرض.

- اصبر يا حبيبي. حتى الصباح ستتحسن. كرر بينك وبين نفسك: ايتها الفأرة الزرقاء، اعطني ماء وسيصبح الأمر اسهل. ناد يا حبيبي الفأرة الزرقاء لتحضر وتجلب لك ماء... ولكن نادها جيداً...

في تلك الليلة كان يتمم، وهو يصارع العطش، بهذه التعويذة، منتظراً ان تأتي الفأرة الزرقاء فعلاً، وان تحضر له الماء. كان يكرر ويتوسل إلى الفأرة الزرقاء «ايتها الفأرة الزرقاء، اعطني ماء، ايتها الفأرة الزرقاء أعطني ماء». بعد ذلك صار يهذي وهو يتقلب من الحمى. وظل يتوسل: «ايتها الفأرة الزرقاء اعطني ماء» ولكن الفأرة الزرقاء لم تحضر، وظل هو يتمم ويناديها ويبكي ويتوسل: «ايتها الفأرة الزرقاء، اعطني ماء» واخيراً جاءت. كانت الفأرة الزرقاء باردة لا يمكن الامساك بها، كنسيم فوق ساقيه في الغابة ساعة الظهر. من الصعب رؤيتها، كانت تبدو كلها زرقاء سماوية، خفيفة تطير

كالنراشة. وكانت الفأرة تلامس بزغبتها الناعم وجهه ورقبته وجسمه فتخفف عنه. لقد اعطته، على ما يبدو، ماء ليشرب، فشرب طويلاً دون ان يرتوي، أما الماء فصار يطوف حوله ويغور فيغمره حتى قمة رأسه. . . .

وفي الصباح استيقظ، وهو مفعم باحساس مضيء خفيف، على نفسه، استيقظ وقد شفي، بالرغم من انه ضعف. وظلت في ذاكرة الصبي الفأرة الزرقاء حاملة الماء، التي اسرعت اليه في تلك الليلة، عندما كان حاله سيئاً، لكي تسقيه وتشفيه.

واليوم يتذكر هذا، وهو يدوي ويتحرق عطشاً في القارب. لو تظهر الفأرة الزرقاء ثانية، وفكر في تلك الساعة بحزن ومرارة عميقين بأمه، التي زرعت في نفسه الأمل بالفأرة الزرقاء - الساقية. تذكر بالأم كيف كانت تنحني الأم فوّه عندما كان يتنفس بصعوبة ويريد ماء. كان وجهها حزيناً مخلصاً، لدرجة تنتزع الدمع. وكانت تنظر اليه بقلق كبير وباستعداد لفعل كل شيء تقدر عليه من أجله وبابتهاال وخوف خفي. كيف هي الآن وماذا تفعل؟ انها تموت، تبكي وتنتظر عند البحر. والبحر لن يخبرها شيئاً. ولا أحد يقدر ان يساعدها في مثل هذه المصيبة، إلا النساء والاطفال الذين يشعلون، حتماً، الآن، النار على منحدرات الكلب الابلق، وبهذا يحافظون على آمالها. ربما تهبط السعادة فجأة فيظهر عند الشاطيء فجأة اولئك الذين تاهوا في البحر.

أما هم فقد كانوا في هذا الوقت يدورون بالقارب في فراغ ميت اسود - رصاصي، ببطء، فاقدين في ظلام الضباب الليلي آخر أمل للخلاص. كلا. لقد كانت القوى غير متكافئة ابداً - ظلام الليل الذي يسود قبل بزوغ الشمس على الدنيا واربعة محكومين في مركب ضعيف

مههد بالانقلاب . . . بلا ماء ولا غذاء، بلا نجوم ترشد طريقهم وسط المحيط .

لم ير كيريسك في حياته مثل هذا السواد المسود في الدنيا، ولم يتصور خلال حياته القصيرة، ولا مرة واحدة، ان تكون آلام الظماً الملتهب قاسية إلى هذه الدرجة . ولكي يسيطر كيريسك على نفسه صار يفكر بتلك الفأرة الزرقاء - الساقية التي انتشلته ذات مرة فسقته وشفته .

«أيها الفأرة الزرقاء اعطني ماء» اخذ يردد، بلا كلل، هذه التعويذة الغريبة التي علمته اياها والدته، هامساً بها بينه وبين نفسه: «أيها الفأرة الزرقاء اعطني ماء . . . أيها الفأرة الزرقاء اعطني ماء». ومع ان المعجزة لم تقع فقد استمر في توسله وندائه بحرارة كبيرة إلى الفأرة الزرقاء . لقد اصبحت الآن معقد أمله، وصارت تعويذته ضد العطش .

أيها الفأرة الزرقاء، اعطني ماء!

وظل يكلم نفسه، محاولاً الانشغال بذلك . كان الصبي يغفو تارة ويستيقظ تارة أخرى متنصتاً، من غير ما ارادة منه في فترات متقطعة بين النوم إلى حديث أورغان وامرايين . كانا يتكلمان عن شيء ما بصوت منخفض ولمدة طويلة . لقد كان كلاماً غريباً غير مفهوم، ذا فواصل طويلة من الصمت، وذا كلمات مبتورة وغير واضحة احياناً . كان كيريسك يفهم كلمات أورغان بشكل أدق، - وهو متكوم بجانبه - كان العجوز يتكلم بصعوبة ويتنفس بثقل، إلا انه كان يجهد محاولاً التغلب علي البحاح والخرير في حنجرتة، وكان كيريسك يسمع والده بشكل اسوأ، فقد كان هذا الأخير يجلس بعيداً، عند مجاذيفه .

كان امرايين يهمس بحرارة، وكأن أحداً سيسمعه هنا :

- لست أنا من يعلمك، ولكن فكر يا تكتيشخ، فانت انسان

ذكي .

أجاب أورغان، وقد ظل عند رأيه على ما يبدو:

- لقد فكرت، فكرت بتركيز، سيكون الأمر هكذا افضل .

ثم صمتا برهة، وعاد امرابين ليقول:

- نحن جميعاً على قارب واحد، ويجب ان يكون قدرنا

جميعنا، واحداً .

وتتمم العجوز بمرارة:

- القدر، القدر، لا مهرب من القدر - كان يتكلم وقد بحت

الانفاس في صوته - هذا أمر معروف ولهذا فهو قدر، شئت ان تخضع

له أم لم تشأ . وبما ان النهاية قد حلت، فبامكان احدنا ان يحمل تبعة

هذا القدر، لكي ينتظر الآخرون . فكر انت نفسك: لو انفتحت الطرق

فجأة، واندفعت بكل قواك، واصبحت الأرض على مرأى العين،

فينقصك بعض جرعات من الماء لكي تمد من أجلك . هل هذا عدل؟

ألن يكون هذا مغيضاً؟

وأجاب امرابين بكلمات غير مفهومة، ثم صمتا . حاول

كيريسك ان ينام، وهو لا يزال يدعو فأرته الزرقاء . كان يعتقد انها

ستحضر عندما ينام . . لكن النوم لم يجيء .

ايتها الفأرة الزرقاء اعطني ماء!

- كيف هو ميلغون؟ سأل أورغان .

فأجابه امرابين:

- على حاله، مازال مستلقياً .

- تقول مستلقياً . وانتظر العجوز قليلاً، ثم قال مذكراً: عندما

سيعود إلى وعيه، اخبره .

فقال امرأين بصوت مرتجف، وهو يتنحج جاهداً:
حسناً، اتكيتشخ، سأنقل له كل شيء. كما دار الحديث.
- قل له انني كنت احترمه. انه صياد كبير، ورجل ذكي. دائماً
كنت احترمه. وصمتا من جديد.

ايتها الفأرة الزرقاء اعطني ماء.
بعد ذلك قال امرأين شيئاً ما، لم يسمعه كيريسك كله، لكن
أورغان اجابه:

- كلا لا استطيع الانتظار. ألا ترى؟ تنقصني القوة. والكلبة
الجيدة تغطس بعيداً عن الانظار. أنا بنفسى. لقد كنت انساناً عظيماً،
اعرف هذا. فدائماً كنت احلم بالسمكة - المرأة. هذا لن تفهمه . . .
أريد الذهاب إلى هناك. - وتحدثنا ايضاً عن أمر آخر. أما كيريسك
فكان يغفوداعياً الفأرة - الساقية.
ايتها الفأرة الزرقاء اعطني ماء.

آخر ما سمعه، ان والده قال لاورغان بعد ان اقترب منه:
- اتذكر اتكيتشخ؟ ذات مرة جاء تجار على الايلة، كانوا يبدلون
البلطات واشياء أخرى؟ ذلك الاصهب الكبير، قال انه، كان يعيش في
بلد بعيد انسان عظيم، سار على قدميه على سطح البحر. اذن يوجد
مثل هؤلاء الناس.

- هذا يعني انه انسان عظيم جداً، اعظم العظماء كلهم. أما
عندنا، فاعظم شيء هو السمكة - المرأة.
في هذا الوقت كان كيريسك نائماً، لكن بعض الكلمات كانت
تتناهى غامضة إلى ادراكه:
- انتظر، فكر قليلاً . . .

- آن الاوان. لقد عشت حصتي . . لا تمنعني. لم أعد اقوى،

لا طاقة لي . .

- ظلام شديد . . .

- وما الفرق . . .

- لم تنته بعد كل كلماتي لك . . .

- الكلمات لا تنتهي . ولن تنتهي حتى بعدنا . . .

- ظلام شديد . . .

- لا تعيطني . لن اتحمل ، قواي تنهار . وأنا أريد بنفسي . . .

- ظلام شديد . . .

- انتم ستصمدون ، فلا يزال هناك القليل من الماء . . .

وانبسط كف قاس كبير على رأس الصبي ملامساً اياه برقة
وحذر. وادرك من خلال نومه: انها يد أورغان. وسكنت اليد الدافئة
الثقيلة لبعض الوقت على رأسه، وكأنها تريد حماية وتذكر رأس
كيريسك . . .



حلم كيريسك انه سار على سطح البحر، سار إلى هناك، إلى
حيث يجب ان تكون الأرض كي يرتوي ماء، كان يخطو دون ان يقع
أو يغرق. كانت الرؤى المحيطة به بديعة ومدهشة. بحر نظيف براق
يمتد في كل مكان تدركه العين. عدا ماء البحر لم يكن يوجد في الدنيا
شيء. البحر فقط والماء فقط. كان يسير على هذا الماء، وكأنه يسير
على أرض صلبة. الأمواج تتحرك مرنة تحت الشمس، من كل مكان،
ومن كل الجهات. ولا يعرف من أين تظهر الامواج وإلى أين تذهب.
كان يسير في البحر وحيداً تماماً. في البداية تخيل وكأنه ركض
أمام أورغان وامرايين وميلغون، لكي يجد الماء بسرعة ويناديهم،
ولكنه فهم فيما بعد، انه هنا في وحدة تامة، صرخ ناداهم، لكن احداً

لم يجب . فلا روح ولا صوت ولا ظل . . . ولم يعرف أين اختفوا .
ففزع من هذا بشدة ، ولم يتمكن من اتمام صراخه . والأرض لم تظهر
في أي مكان ، ولا في أية جهة . ركض على البحر متنفساً بصعوبة ،
باذلاً قواه ، لكنه لم يتقرب من أي شيء ، وظل مكانه ، ورغبته في
الشرب تزداد قوة وتفقاً على قدرة الاحتمال . عندها رأى طيراً يحلق
فوقه . انه البطة لوفر ، كانت تبطبط وتحلق فوق البحر باحثاً عن مكان
من أجل العش . ولكنها لم تجد نقطة يابسة . في كل مكان كانت
تدحرج امواج لا نهائية . ودارت البطة لوفر وأنت شاكية . وتوجه
كيريسك اليها :

ايتها البطة لوفر ، اين الأرض؟ وفي أية جهة؟ أريد ان اشرب؟
وأجابت البطة لوفر :

- ليس في الدنيا بعد أرض ، ولا في أي مكان ، لا يوجد إلا
الامواج .

وسأل الصبي عن الناس الذين اختفوا :
- وأين الباقون؟

- لا وجود لهم ، لا تبحث عنهم . ليسوا في أي مكان .
وسيطر على كيريسك احساس قاس من الوحدة والحزن ليس
في مقدور الكلمات وصفه . أحس رغبة بالهروب من هنا إلى حيث
تنظر عيناه ، ولكن لا مكان يهرب اليه ، لا شيء سوى الماء والامواج
تأتي من كل الجهات . وغابت البطة لوفر بعيداً متحوّلة إلى نقطة سوداء .
وتوسل الصبي :

ايتها البطة لوفر ، خذيني معك ، لا تركيني . اريد ان اشرب .
ولكنها لم تجب واختفت بسرعة فوق البحر بحثاً عن الأرض
التي لم توجد بعد .

أما الشمس فكانت تبهر النظر.

استيقظ دامع العينين، وهو ينشج ويتألم من ثقل الحزن والخوف المطبقين عليه. فتح عينيه المحمرتين من البكاء ببطء، وادرك انه كان يرى مناماً. كان القارب يهتز بعض الشيء على سطح الماء. ظلام الضباب الرمادي كان يهبط ويتجمع من كل جانب. اذن فالليل في آخره والصبح يقترب. تحرك الصبي.

- اتكيتشخ، اريد ان أشرب، لقد رأيت مناماً - تمتم بهذا ماداً يده نحو أورغان. لكن يده لم تقع على أحد، فقد كان مكان أورغان في مؤخرة القارب فارغاً.

- اتكيتشخ - نادى كيريسك. لم يرد عليه أحد. فرفع الصبي رأسه وانتفض - اتكيتشخ اتكيتشخ، أين أنت؟

اقترب منه امرأين فوراً وضم ابنه وشده بقوة إلى صدره:

- لا تصرخ، لا تصرخ. اتكيتشخ غير موجود. لا تناده، لقد ذهب إلى السمكة - المرأة.

لكن كيريسك لم يصغ.

- اين اتكيتشخ؟ اين جدي؟ أين؟

- اسمع! لا تبك! اهدأ يا كيريسك، لم يعد اتكيتشخ موجوداً

- حاول والده اقناعه - ولكن لا تبك. لقد قال لي ان اعطيك الماء، لقد بقي منه القليل. عندما تكف عن البكاء سأعطيك لتشرب، لكن لا تبك. قريباً سيزول الضباب، وعندها ستري. . .

لم يهدأ كيريسك، وانفلت بيأس من بين ذراعي والده. فاهتز

القارب بسبب عنف الحركات. ولم يعرف امرأين ما العمل.

- ها نحن الآن سنبحر! انظر، سنبحر الآن هيه، ميلغون،

انهض، انهض اقول لك، سنبحر! . .

وأخذ ميلغون يجذف، وانزلق المركب بهدوء على سطح الماء، وعادوا ثانية للبحار دون ان يعرفوا إلى أين ولماذا في هذا الضباب الحليبي الكثيف، الجاثم كالسابق، أصم أبكم على الدنيا كلها. هكذا استقبلوا النهار الجديد. لقد اصبحوا الآن ثلاثة في القارب. ايتها الفأرة الزرقاء اعطني ماء.

بعد ذلك، عندما هدأ كيريسك بعض الشيء، انتقل امرابين ليجلس عند مجاذيفه، وانطلقوا بالمجاذيف الاربعة اسرع قليلاً، دون ان يعرفوا ايضاً إلى أين، ودون ان يعرفوا لماذا. أما كيريسك الذي هزه اختفاء العجوز أورغان، فقد ظل ينشج بمرارة، وهو يجلس يتيماً على مؤخرة القارب. الوالد وميلغون كانا ايضاً مغلوبين على امرهما، لا يستطيعان ان يساعدا نفسيهما، أو ان يساعدا كيريسك بشيء، ولم يجدا امامهما إلا ان يمسكا بالمجاذيف. كانا يبهران لمجرد ان يبحرا. كانت وجوههم جميعاً سوداء في الضباب الأبيض، وعليهم جميعاً كانت تخيم مصيبة اكيدة لا ترحم: العطش والجوع. كانوا صامتين، ولم يتحدثوا عن شيء. كانوا يخافون الحديث. بعد برهة رمى ميلغون بالمجاذيف. وقال لامرابين بغضب: - وزع الماء.

وسكب امرابين لكل واحد بضعة جرعات من الماء في قعر الطاس. كان الماء قد اسن واصبح ذا رائحة كريهة وطعم عفن. لكنه لم يبق، حتى من هذا الماء، إلا القليل جداً. لم يبق إلا ما يكفي للتوزيع ثلاث أو أربع مرات فقط. لم يرتو أحد، ولم يخفف ما شربوه من وطأة العطش على أحد منهم.

وعاد من جديد الانتظار المضمي: سيتغير الطقس أم لا؟ لم يعد هناك من يطرح اقتراحات باعثة للأمل. لقد وقعوا، وهم المنهكون

الضعفاء، دونما ارادة منهم، فريسة للامبالاة. صاروا ينتظرون قدرهم مستسلمين، دائرين على قاربهم بلا هدف في هذا الضباب المهلك. ولم يبق لهم إلا الخضوع للقدر. كان الضباب يزداد اضطهاداً وقهراً لارادتهم. وتكلم ميلغون مرة واحدة شتم فيها بعنف وبصوت مرتجف حاقد:

- ليزل الضباب وأنا مستعد لأن اموت. سألقي بنفسي من القارب، على ان ترى عيناى طرف الدنيا!
صمت امرايين، بل انه لم يلتفت. وماذاله ان يقول؟ لقد أصبح الآن بمثابة القائد في القارب. لكنه لم يستطع ان يقترح أي شيء آخر. فلا مكان يبجر اليه!
ومر الوقت. القارب ينساق تلقائياً، يثبت متمسراً في مكانه تارة، ويتحرك تارة أخرى.

مع كل ساعة كان يزداد الخطر المحقق بحياتهم، فألى ظمئهم الذي لم يطفأ كان يضاف الجوع المدمر القاسي. كانت قواهم تخور وتفارق اجسامهم.

استلقى كيريسك على مؤخرة القارب بعينين نصف مطبقتين. كان رأسه ثقيلاً وقد اصابه الدوار، وكان يتنفس تنفساً صعباً. فقد انشبت التشنجات اظافرها في معدته الخاوية. طوال الوقت كان يريد الشرب، فما أشد ما كانت رغبته بالشرب قوية.

ايتها الفأرة الزرقاء اعطني ماء.

حاول الصبي الآن، وهو يبتهل ويدعو الفأرة الزرقاء الساقية، ان ينسى. وصار يبحث الآن عن الخلاص في ذكريات تلك الحياة التي ظلت عند اقدام الكلب الابلق، والتي صارت الآن خيلاً صعب المنال.

«ايتها الفأرة الزرقاء اعطني ماء» هذا ما كانت تتمتم به شفتاه .
وبما ان رأسه كان مصاباً بالدورا، فقد تصور كيف كانوا يلعبون
متدحرجين على السفح المعشوشب لاحدى التلال وكأنهم جذوع
اشجار . آه، لقد كانت لعبة ممتازة مسلية . كان كيريسك أكثر اللاعبين
مهارة وتحملاً في هذه اللعبة . كان يجب الصعود جرياً إلى قمة تلة
شديدة الانحدار، ومن هناك التدحرج إلى الاسفل تماماً كجذع شجرة
مشذب، أفلت من أعلى المنحدر إلى الأسفل . كان يجب اسبال
الذراعين تماماً والصاقهما بالجسم . وفي البداية، كان يجب عليك
دفع جسمك بنفسك كي تتحرك : تقلب مرة واثنين وثلاثاً، ثم تنطلق
بلا توقف . وتضحك مقهقهة لشدة المتعة، والسماء تميل من جانب
إلى جانب، والغيوم تمر متتابعة أمام العين، والأشجار تدور وتتهاوى،
كل شيء يطير، عاليه سافله بينما الشمس في السماء تقهقه ضاحكة .
وحولك صراخ وزعيق الاطفال . وانت تتدحرج وتتدحرج إلى الأسفل .
وتزداد سرعة أكثر وأكثر . في هذه الأثناء تمر أمام عينيك بشكل رائع
وجوه الاطفال المتطاولة وسيقانهم المقوسة، وهم يعدون خلفك .
واخيراً تتوقف . آه! لا شيء إلا الضجيج في الاذنين! وهنا تأتي ادق
اللحظات : يجب ان تنتصب على قدميك، دون ان تسقط بسبب دوار
الرأس، خلال العد: واحد، اثنين، ثلاث . الجميع يسقطون عادة في
المحاولة الأولى . اذ ذاك يكون الضحك! الكل يضحكون، وأنت
نفسك تضحك! تريد ان تقف والأرض تموج تحت قدميك . أما
كيريسك فلم يكن يسقط . كان يثبت على قدميه . كان يحاول قصارى
جهده، اذ ان موزلوك بقربه . ولم يكن يريد ان يسقط امامها، كأى
ضعيف آخر .

لكن أجمل شيء وأكثر ما هو مدعاة للضحك، كان سباقه مع

موزلوك في التدحرج على التل . الفتيات يستطعن ايضاً ان يتدحرجن ،
إلا انهن جبانات ، واحياناً تعلق ضفائرهن بشيء ما . كلا . ان هذا أمر
بسيط ، فبلا رضوض لا يمكن ان يمر هذا المرح .

عندما كان يتدحرج مع موزلوك ، كان كيريسك يتعمد ان يباعد
مرفقيه بشكل غير ملحوظ ، وأن يكبح حركته كيلا يسبقها . كانا يصلان
إلى الأسفل في وقت واحد بين صراخ ، وقهقهات المحيطين ، وكانا
يقفزان معاً قبل العد «ثلاث» على ساقيهما . ولا أحد يتصور كم كانت
المتعة كبيرة ، عندما يمسك موزلوك ويساعدها على الانتصاب على
الأرض . كانا يتعانقان بشكل عفوي ، بحجة ان احدهما يسند الآخر .
موزلوك كانت تضحك مرحة . كانت شفتها مثيرتين جداً ، وكانت دائماً
تفعل ما يجعل كيريسك يمسك بها . فطوال الوقت كانت تتظاهر بانها
تكاد تسقط ، وكان عليه ان يساعدها في الثبات على قدميها ، ممسكاً
بها ومعانقاً اياها . لا أحد يقدر تلك الدقائق من السعادة الفريدة
والحب الممزوج بالخوف ، التي كانا يعيشانها اثناء ذلك . تحت الثوب
الرقيق كان يدق قلب الفتاة الجامح خاصة وان جسديهما يتلامسان ،
وكيريسك كان يتلمس نهديها الصليبين ، وهما في بداية بروزهما ، كلما
وقعا تحت يديه ، فترتعش وتلتصق به بسرعة . كم كانت عيناها مشعتين
بالاسرار ، سكرتين من دوار الرأس . كل العالم - كل ما كان على
الأرض وفي السماء - كان يسبح ويدور معهما مستحماً في ضحكهما
الذي لا ينقطع وفي سعادتهما . لا أحد يقدر أية سعادة كانت هذه
السعادة!

ذات مرة ، ادرك ذلك أحد اقارب كيريسك ، وهو أكبر منه
قليلاً ، مكروه ومحتقر ، فصار يلقي بنفسه كالمجنون على موزلوك ،
وكأنه لا يقدر ان يثبت في مكانه بسبب الدوار . ابتعدت موزلوك عنه

وهربت منه، أما هو فتصنع السقوط بسبب الدوار ولحق بها ورمى بنفسه عليها. فاشتبك كيريسك معه. كان ذلك أكبر من كيريسك قليلاً، وقد رماه أرضاً أكثر من مرة، ومع ذلك كانت النتيجة التعادل - فكيريسك لم يستسلم ولم يسمح لموزلوك بالدفاع عنه، إلا ان هذا وقع مرة واحدة فقط . . .

كانت هناك أيضاً لحظات سعيدة. عندما كانا يركضان وسخين والعرق يتصبب منهما، بعد انتهاء اللعب ليشربا من الجدول.

ايتها الفأرة الزرقاء اعطني ماء!

آه، أيتها الفأرة الزرقاء اعطني ماء!

لم يكن الجدول بعيداً. فقد كان مجراه يخرج من الغابة ويصل إلى ذلك المكان، حيث كانا يلعبان. كانت مياهه تترقق على الحصى، محتفظة في جريانها ببرودة الغابة وظلمتها. كانت الاعشاب تتشابك حول الجدول مخيمة بكثافة عليه، حتى تصل إلى الماء الجاري. وتلك الأعشاب التي نبتت عند الحافة كانت تغتسل في الجدول، مقاومة بعيدانها دفع الجريان المرح. الجدول يجري مندفعاً نحو البحر، مسرعاً في تلالئه تحت ضوء الشمس احياناً، وغائراً تحت الصخور البارزة على الشاطيء المنحدر تارة أخرى، أو مختفياً بين الأعشاب وشجيرات الصفصاف.

كانا يركضان معاً إلى الجدول ويتهافتان معاً على الماء، مبعدين الأعشاب جانباً. لم يكن لديهما الوقت ليغسلا ايديهما كي يغرفا الماء بأكفهما ويشربا، فكانا يغبان كالايلة، مدليين رأسيهما فوق الماء، غاطسين بوجهيهما في التيار ذي الخريير الناعم الذي يدغدغهما برقة. آيه، يالها من متعة.

ايتها الفأرة الزرقاء أعطني ماء!

آه، أيتها الفأرة الزرقاء أعطني ماء!

كانا ينبطحان عند الجدول مدليين رأسيهما نحو الماء، كتفاهما متلاصقان، وايديهما مدلاة في تيار الماء السريع، تتشابك وكأنهما يملكان زوجاً مشتركاً من الايدي . كانا يشربان الماء بشفاهما، مع فترات توقف لالتقاط الانفاس، فيرتويان ويعبثان بفرح، مبقبين في الماء بأفواههما . كانا لا يرغبان بالانصراف من هنا . كانا لا يرغبان برفع رأسيهما المدلاتين في الجدول النظيف، الذي كانا يريان فيه خياليهما المتراكضين بسرعة لا تسمح بالتقاطهما، كانا يبتسمان لهما: للخيالين المشوهين بشكل مضحك، وبتسمان لبعضهما البعض .

ايتها الفأرة الزرقاء اعطني ماء!

ايتها الفأرة الزرقاء اعطني ماء!

ايتها الفأرة الزرقاء اعطني ماء!

آه، ايتها الفأرة الزرقاء اعطني ماء! . .

موزلوك كانت تنظر اليه دون ان ترفع وجهها عن الجدول، حارفة بشيء من الخبث، عينيها المتطاولتين . وكان ينظر اليها بنفس الطريقة وبنفس الخبث، كان يبتسم لها جواباً على نظراتها . كانت تدفعه بكتفها، وكأنها تدفع به عنها . أما هو فلم يكن يتراجع، عندها كانت تملأ فمها ماء وترشه في وجهه . كان هو يفعل الشيء نفسه: يملأ فمه ماء أكثر ويقذفه حزمة قوية في وجهها . بهذا كانت تبدأ لعبة صاحبة وجري وجلبة لا تهدأ: يطاردان بعضهما في الماء، ويرشان بعضهما كيفما وبقدر ما يستطيعان . كانا يجريان في الجدول إلى الأمام والوراء، صارخين مقهقهين مبتلين من قمة رأسيهما وحتى أخمص اقدمهما .

ايتها الفأرة الزرقاء اعطني ماء!

كان من الصعب على كيريسك التسليم بأن هذا لن يتكرر.
التنفس يزداد صعوبة، كما ازداد توتر تشنجات معدته. بكى بصمت،
وصرخ بهدوء من الألم، مستمراً في مناداة الفأرة الزرقاء:

ايتها الفأرة الزرقاء اعطني ماء!

هكذا اضطجع محاولاً نسيان ذاته في الاحلام. ولم يتغير حوله
شيء. غشاوة الضباب البيضاء مازالت، كما كانت، جاثمة بلا حراك
فوقهم. كانوا مرتمين عديمي الحول، كل في مكانه على القارب،
وكان ما ينتظرهم ما يزال مجهولاً، عندما اهتز القارب بشدة وسمع
صرخة ابيه المفزعة:

- ميلغون، ميلغون! ماذا تفعل؟ كفت!

رفع كيريسك رأسه فاصابته الدهشة: ميلغون الذي انحنى
بجسمه إلى خارج القارب يغرف بالطاس ماء البحر ويشربه.

- كفت. قالها امرابين وقد وثب نحوه يريد انتزاع الطاس منه.

لكن ميلغون استعد مهدداً:

- لا تقترب ايها اللحية، وإلا قتلتك!

كان ميلغون يشرب هذا الماء المالح المر، الذي لم يكن من
المعقول مضغه في الفم، مبللاً ثيابه، ساكباً الماء على صدره
واكمامه. كان يشرب ضاغطاً على نفسه ومجبراً اياها، وهو يقلب
الطاس اليه بايد راجفة ووجه مكشر تكشيرة الوحوش.

بعد ذلك رمى بالطاس في قعر القارب، ثم تهاوى مستلقياً على
ظهره وهو يلهث ويشخر. وظل هكذا مستلقياً، دون ان تكون هناك أية
امكانية لمساعدته. وتكور كيريسك لشدة خوفه في كتلة واحدة، معانياً
من ظمأ أشد ومغص حاد في معدته. أما امرابين المتهالك، فقد
أمسك بالمجاديف من جديد، وصار يدفع القارب إلى مكان ما في هذا

الضباب . فلم يكن بإمكانه ان يفعل غير هذا .
كان ميلغون يهدأ تارة ، ويعود تارة أخرى ليتحرك ويشخر
متشنجاً . وكانت تضنيه نوبات الظمأ . بعد فترة قصيرة رفع رأسه :
- انه يحترق . كل شيء في داخلي يحترق ! وصار يمزق ثيابه
عند صدره .

- قل لي : ماذا افعل ؟ كيف أساعدك ؟ مازال يوجد . . . وقفز
امرايين إلى البرميل : أسكب لك ؟
- لا ، الآن لا ، كنت أريد ان اتحمل حتى الليل ، وعندها . . .
كالمرحوم اتكيتشخ . ولكنني لم أصمد . فليكن هذا . . . وإلا لفعلت
شيئاً آخر غير ذلك . لكنت شربت الماء كله . أما الآن ، فهذه نهايتي ،
وأنا راحل . الآن هذه نهايتي . . . أنا بنفسي ، مازلت قادراً . . .
في وسط هذا البحر المقفر ، وفي الضباب الذي لم تكن له نهاية
ولا حدود ولا أجل ، كان من المرهب وغير المحمول سماع كلمات
انسان حكم على نفسه بالموت البطيء . كان امرايين يريد بشكل ما
ان يهديء من روع صديقه واخيه ميلغون ، وان يقول له شيئاً ما ، إلا
ان ذاك لم يكن يريد الاصغاء اليه ، كان مستعجلاً . كان قد قرر بتر كل
آلامه بضربة واحدة .

تمتم ميلغون كالمجنون :

- لا تقل لي يا امرايين شيئاً . لقد فات الآوان ! أنا بنفسي
سأرحل ، بنفسي . أما انتما ، أب وابنه ، فقررنا بنفسيكما ماذا سيكون
الافضل . اعذراني لأن الأمور تمت على هذا النحو . انتما أب وابنه .
ابقيا . فما زال يوجد بعض الماء . . . أما أنا فسأخطوا إلى الجانب
الأخر . مع هذه الكلمات نهض ميلغون منحنياً و متمسكاً بحافة
القارب . وقال ميلغون لامرايين وهو يتمايل مستجمعاً قواه ، وناظراً اليه

من تحت حاجبيه :

- لا تمنعني بالحية . هذا ما يجب ان يكون . لا تمنعني .
وداعاً ، ربما تصمدان . أما أنا فالآن . . . وأنت ابتعد من هنا فوراً . . .
فوراً ولا تنتظر . . . اذا اقتربت سأقربكما . والآن جذف ايها اللحية ،
جذف بقوة . اسمعني ، سأقلب القارب . . .

لم يبق أمام امرائين إلا ان ينصاع لتهديدات ميلغون وتوسلاته .
وانطلق القارب بخط مستقيم ماخراً الضباب الابكم والماء الصامت .
فبكى كيريسك متوسلاً :

- آكي ميلغون ، آكي ميلغون ، لا تفعل !

وفي هذه اللحظة بالذات رمى ميلغون نفسه بتصميم خارج
القارب ، فترنح المركب بشدة ثم استوى .

- ابحر بعيداً - بعيداً . صرخ ميلغون وهو يتخبط في الماء .
وحجبه الضباب عن الاعين فوراً . وصمت كل شيء . بعد ذلك دوت
في هذا الهدوء الرنان ، مرة أخرى ، آخر صرخة يطلقها الغريق . فانهار
عندها امرائين وأجاب :
- ميلغون ، ميلغون .

وادار القارب إلى الخلف وهو ينتحب .

عادا بسرعة ، لكن ميلغون لم يعد موجوداً . كان سطح الماء
ساكناً وخاوياً ، وكأن شيئاً لم يحدث . لقد أصبح من الصعب تحديد
المكان الذي غرق فيه الرجل .

قضيا بقية نهارهما وهما يدوران في مكانهما ، دون ان يبجرا إلى
أي اتجاه . كانا يبكيان وقد هدتهما واضعفتها المأساة . لأول مرة في
حياته ، يرى كيريسك كيف يبكي ابوه . قبل ذلك لم يحدث له مثل
هذا .

- ها نحن الآن وحيدين . تتمم امرائين بذلك وهو يمسح الدموع عن لحيته، دون ان يقوى على تمالك نفسه: ميلغون، ياعزيزي المخلص . همس بذلك وهو ينشج . . .

اقترب النهار من النهاية . هكذا يبدو . لو كانت الشمس موجودة في مكان ما . لو كانت تسير في السماء فوق البحار وفوق الضباب ، لكانت الآن تنحدر بهدوء إلى مكانها . وهنا ، تحت هذا الستار من الضباب ، الذي يزداد اعتماداً وهو يتشبع بظلام المغيب ، يدور قارب وحيد تائه انقطعت اخباره ، ولم يبق فيه الآن سوى اثنين : أب وابنه .

قبل هذا ، قبل أن يقول لنفسه أن المساء يقترب ، قرر امرائين أخيراً ، انه قد آن الأوان لشرب الماء . كان يرى ، كيف كان كيريسك ينتظر هذا بفاغ الصبر ، وأدرك كم كلف تحمل الجوع والعطش ابنه ، وكم كلفه ان يكابر نفسه دون ان يصدر صوتاً واحداً . موت ميلغون كان شبيهاً بكابح للتفكير بالماء ولمدة طويلة . لكن الظمأ عاد ليحتل مكانه ، والتهب بقوة مضاعفة ، معوضاً بقسوة عن التأجيل اللاارادي للعذاب .

بحذر فائق وكيلا تهدر قطرة واحدة ، سكب امرائين الماء لكيريسك أولاً . فتناول الصبي الطاس وابتلع حصته فوراً كالمخبول ، ثم سكب امرائين لنفسه بعد ان اكتشف انه لم يبق من الماء في البرميل إلا ما يغطي قعره . وفهم كيريسك هذا ايضاً ، من ميل البرميل بين يدي والده . وذهل امرائين لدهشته ، مع انه كان يفترض ان هذا سيحدث . هنا لم يسرع امرائين لشرب مائه . امسك الطاس بين يديه متأملاً ، وقد أدهشته الفكرة الطارئة ، التي لم يعد ارواء الظمأ يعني شيئاً بعد ظهورها .

- هاك امسك .

واعطى الطاس لابنه، بالرغم من انه ما كان يجدر به ان يفعل ذلك. فقد كان بمثابة التعذيب بالنسبة للصبي ان تعطيه طاساً به ماء دون ان يجروء على الشرب. عندما حرر امرائين يديه دفع السداة باحكام ووضع البرميل الفارغ حتى قعره تقريباً مكانه. وعرض الماء على ابنه:

- اشرب.

فقال كيريسك متعجباً:

- وأنت؟

- أنا، فيما بعد. لا تظن شيئاً، اشرب. قال الأب ذلك بهدوء.

وبلا تمهل ابتلع كيريسك ثانية، هذه الجرعة من الماء العفن. لم يطفأ الظمأ كما كان يشتهي، لكنه أحس، مع ذلك، ببعض الراحة. وسأله والده:

- كيف؟

فهمس الصبي ممتناً:

- افضل قليلاً.

- لا تخف. وتذكر ان الانسان بإمكانه ان يصمد يومين وثلاثة بلا

أية قطرة ماء في فمه، فمهما كان الحال لا تخف. . .

- لهذا لم تشرب أنت؟ قاطعه كيريسك.

ارتبك امرائين واسقط في يده بسبب هذا السؤال، فأجاب

باقتضاب بعد ان فكر:

- أجل.

- وبدون طعام كم؟ فنحن لم نأكل منذ زمن بعيد.

- يكفي ان يوجد الماء. ولكن لا تفكر بهذا. هيا بنا نبحر قليلاً.

هذا احسن. اريد ان اتحدث اليك.

وصر امرأين بالمجازيف، وانزلقا ببطء على سطح البحر، في الضباب، وكأنهما كانا عاجزين عن الكلام في ذلك المكان، حيث كانا. كان على الأب ان يستجمع قواه خلال السير. فقد بدا له من الأسهل التركيز هكذا، ومن الأيسر تجهيز نفسه لمثل هذا الحديث الذي كان مجرد التفكير به يسبب تجلدا احشائه تجلداً مؤلماً. لم يجذف هو وحده، بل أمر ابنه ان يجلس إلى المجازيف. لم تكن هناك أية ضرورة لذلك، كما لم تكن هناك أية ضرورة للابحار إلى مكان ما. كان الصبي يحرك المجازيف البحرية الكبيرة جداً بالنسبة له بصعوبة. كان بإمكانه ان يتحكم بمجذاف واحد، لكنه ما يزال صغيراً على زوج من المجازيف. اضافة إلى ذلك، كان واضحاً ان الصبي قد ضعف بشكل ملحوظ، كما كان هو يضعف من ساعة إلى ساعة. وهذا ما اضطر الأب إلى تسريع الاحداث. الوقت يرحل. الوقت يمضي. صمت كيريسك ولم يلتفت، وصار يحرك المجازيف الثقيلة بشكل عشوائي. لكن ليس هذا ما هز امرأين. لقد نظر إلى ابنه من وراء ظهره، نظر إلى هذا الجسم المتقوس، الذي لم يزال - كما لاحظ هو الآن - طفولياً ضئيلاً ضعيفاً، فعرض على شفتيه، وقلبه - كان يحس هو بذلك - يقطر دماً مع كل دفقة حارة نابغة من الألم. لكنه لم يجروء على بدء الحديث، مع انه لم يكن هناك مخرج آخر. . .

صارت الرؤية في اعماق الضباب تنخفض بالتدرج، وامرأين يبحر في افكار مؤلمة. فالوقت الذي بقي كان قليلاً فعلاً، ومهما تجلد ومهما كان جباراً بطبيعته، فان الظماً والجوع قد تغلبا على قواه بسرعة وابتلعاها. كان عليه ان يغتنم الوقت لهيئة ابنه لما عزم عليه في تلك الساعة. كان عليه ان يقوم بذلك مادام قادراً على التماسك وقوة الارادة. كان عليه ان يحذو حذو أورغان وميلغون، وان يغادر القارب. كان

يدرك ان هذا هو الامكانية الوحيدة للحفاظ على حياة ابنه ، ان لم تكن لمجرد اطالتها بقدر ذلك الماء ، الذي بقي في قعر البرميل ، على أقل تعديل . لم يكن يستطيع ان ينبيء نفسه : هل سينقش الضباب في هذه الليلة ، أم في النهار التالي . ولم يكن يستطيع اطلاقاً ان ينبيء نفسه بما سينتظر ابنه ، حتى لو تحسن الطقس عاجلاً أم آجلاً ، وكيف سيتمكن ، بعد ان يبقى وحيداً في البحر ، من الصمود والنجاة . لم تكن هناك اجوبة على كل ذلك . الأمل الوحيد - وهو ضعيف ، بل غير قابل للتحقيق ابداً - الذي كان يحاول اقناع نفسه به ، هو انه ربما يلتقي ، مصادفة ، اذا ما انكشف البحر ، بقارب كبير لبشر بيض . كان يعرف مما سمعه ان البشر البيض يظهرون احياناً في هذه المياه ، يقطعون المحيط بعيداً عن شواطئهم ويبحرون لشؤونهم من بلاد بعيدة إلى بلاد بعيدة أخرى . هو نفسه لم يلتق بهم ابداً ، لكن التجار ، الذين يعرفون كل شيء ، والذين يدعي بعضهم انهم ، انفسهم ، ركبوا على قوارب البشر البيض الكبيرة كالجبال ، هؤلاء التجار كانوا يرون ذلك . هذه المعجزة ، اذا ما تحسن الطقس وتلاقت الطرق ، اذا ما لاحظ البشر البيض القارب الخشبي الصغير في المحيط ، هذه المعجزة فقط يمكن ان تكون الأمل الضعيف ، بعيد الاحتمال ، شبه المستحيل ، إلا انه مع ذلك ، يظل أملاً .

كان امرابين يستعد ليحيط ابنه علماً بهذا قبل ان يتركه . كان من الضروري ايضاً اقناع كيريسك وتوصيته توصية صارمة ، بأن يبقى في القارب حتى آخر نفس ، مادام وعيه معه . واذا ما كان مكتوباً له الموت ، عندما ينضب الماء . فان عليه ان يموت في القارب . لا ان يلقي بنفسه في البحر ، كما فعل العجوز أورغان وميلغون مضطرين ، وكما سيفعل هو - والده . لم يكن هناك أي مخرج آخر ابداً . كان عليه

ان يستسلم ويخضع لقسوة القدر. . . ولكن عندما كان امرائين يفكر بأن الصبي ذا الاحد عشر عاماً سيبقى في القارب وحيداً ووجهاً لوجه مع الدنيا كلها، في ضباب قاتم، وسط بحر لا شواطئ له، يموت ببطء من الظمأ والجوع، كان يسيطر عليه الذهول. اذ يستحيل التعايش مع هذا، فقد كان ذلك أكثر جبروتاً من كل قدرة، عندها أمسك على نفسه فكرة انه لا يستطيع ترك ابنه وحيداً، فالأفضل ان يموت معه . . .

وسرعان ما صار الظلام دامساً، وعاد ليسود في البحر سواد الليل الحالِك. اذا كان من العبث الابحار إلى أي اتجاه في الضباب نهاراً، فكم عبث هو الابحار ليلاً. كان القارب يهتز بهدوء في مكانه. وكانت لا تزال معدومة أية دلائل على احتمال تغير الطقس. كان البحر مستلقياً دون تنفس.

مكث الأب والابن الليل كله في قعر القارب، يلتصق احدهما بالآخر التصاقاً شديداً. ولم ينم لا هذا ولا ذاك. كلاهما كان يفكر متألماً من العطش والجوع، بما ينتظرهما! . . .

شعر كيريسك وهو يستلقي بجانب ابيه، كيف نحل وهزل ابوه خلال هذه الأيام، كيف صغر جسمه وانعدمت قواه. ولم يبق منه إلا اللحية. كم كانت قاسية ومرنة. . . وادرك كيريسك، في هذه الليلة، وهو يلتصق بوالده شارقاً الدموع بهدوء شفقة عليه، ادرك باحساس لم يعرفه من قبل، احساس الارتباط والعاطفة البنوية البدائية. ما كان ليقدر ان يعبر عن هذه المشاعر بالكلمات، فقد كانت تذوب في روحه وفي دمه ودقات قلبه. كان في الماضي يزهو دائماً بأنه يشبه اياه، كان يقلده ويحلم ان يكون مثله، أما الآن فقد توصل إلى ادراك ان الأب - هو نفسه، هو بدايته، أما هو فاستمرار لابيهِ. لذلك تألم واشفق على

ابيه وعلى نفسه . كان يدعو الفأرة الزرقاء بحق ، كي تحضر لهما الماء ، له ولابيه .

ايتها الفأرة الزرقاء اعطني ماء!

ايتها الفأرة الزرقاء اعطني ماء!

لم يعد الأب يفكر بالماء لنفسه ، بالرغم من انه مع كل ساعة ، كان تحمل آلام الظمأ الذي لا يطفأ والمتعاطم والذي اصبح غير محمول جسدياً يزداد صعوبة . كل شيء في داخله كان يلتهب ويجف ويتقلص بتشنج حديدي لا يقاوم . وكان الدوي يرتفع في رأسه . لقد أدرك الآن آخر عذابات ميلغون . لكن افكاره لم تتركز على هذا . التفكير بالماء والرغبة بالشرب حتى الارتواء لم يعد لهما الآن معنى بالنسبة له . لولا ابنه لكان اوقف هذه الآلام المستحكمة منذ زمن بعيد ، لكان اوقفها لو استطاع ان يلزم نفسه على ترك ابنه القابع تحت ابطه في هذه الليلة المظلمة الاخيرة . من أجل ابنه الذي يحافظ عليه حتى آخر امكانية ، وان كان لا يملك أي أمل بالنجاة . من أجل ان يمد له بحياته قدر المستطاع - وهنا يكمن الآن كل صراع وأمل الأب الغريزيين ، وفي هذا يرى الآن مشيئته وقدره الاخيرين - من أجل كل هذا كان عليه ان يسرع في مغادرة القارب . ولكن بسببه هو ، بسبب الأبن ، لم يستطع ان يحزم أمره على ذلك ، غير متجاسر على تركه مع عسف القدر . لكن التباطؤ والتمهل اكثر من ذلك كان خطراً : آخر طاقاته كانت تفارقه ، وهي الضرورية له كي يستعد نفسياً .

كانت حياة الأب تقترب من النهاية . . .

كيف وبأي كلمات يمكن شرح هذا للابن؟ كيف يقول له انه

يتركه من أجله؟

كانت حياة الأب تقترب من النهاية . . .

- ابي!

همس كيريسك فجأة، وكأنه عرف بما يفكر ابوه، والتصق به أكثر، وهو يدعو فأرته الزرقاء .

ايتها الفأرة الزرقاء اعطني ماء!

ايتها الفأرة الزرقاء اعطني ماء!

اطبق امرايين اسنانه، وأن تحت وطأة البلوى، ولم يجروء على قول شيء. كان يودع ابنه بافكاره، والأصعب من ذلك والأكثر ايلاماً هو النهوض إلى الخطوة الأخيرة. لقد فهم في هذه الليلة، ان كل حياته السابقة ما كانت إلا تمهيداً ليلته هذه. لقد ولد ويموت من أجل ان يمد حياته بقواه الأخيرة في ابنه. فكر بذلك في تلك الساعة مودعاً ابنه بصمت. لقد حقق امرايين لنفسه اكتشافاً: كان طوال حياته كما هو الآن، وذلك لكي يستمر في ابنه حتى النفس الأخير. واذا لم يفكر بهذا سابقاً، فذلك، فقط، لعدم وجود دوافع.

وهنا تذكر انه مرت بعض المواقف، حينما كانت هذه الفكرة تلمع في ذهنه كالبرق في السماء. تذكر وايقن الآن ما حدث له ذات مرة، عندما كان مع ميلغون وآخرين من الاقارب، يقطع شجرة ضخمة من الغابة. بدأت الشجرة بالانهيار، فظهر هو، في تلك اللحظة وبمحض المصادفة، في ذلك الجانب إلى حيث كانت تهوي، مدمرة كل ما تصادفه، هذه الشجرة العملاقة الصريعة، فصرخ الجميع بصوت واحد:

- احذرا!

فتسمر امرايين للمفاجأة، وكان الأوان قد فات: كانت الشجرة تنهال عليه ببطء ودون رحمة، مقطقة، مرعدة بأغصانها المندفعة، مهدمة السماء نفسها ومنتزعة قطعة من قبة الغابة الخضراء. في تلك

اللحظة فكر بشيء واحد فقط - وكان كيريسك اذ ذاك صغيراً ووحيداً - لم تكن بسولك قد ولدت بعد. فكر بأن ابنه هو الذي سيكون هو من بعده. لم يفكر اذ ذاك، في تلك الثواني المعدودة على عتبة الموت المحتم، إلا بهذا، ولم يكن لديه الوقت للتفكير بأي شيء آخر. وسقطت الشجرة بجانبه مع دوي رهيب فلفته بموجة من الاوراق والغبار. عندها صرخ الجميع متنفسين الصعداء. لقد ظل حياً سليماً، حيا ظل امرايين.

ايقن الآن بعد ان تذكر هذا الحادث، ان ظهور ابنه، هو الذي جعله كما هو الآن، وانه لم يحس في حياته بأحسن وأقوى من شعور الابوة. لهذا شكر الاطفال وفي مقدمتهم ابنه كيريسك. كان امرايين يريد ان يحدث ابنه بهذا، ولكنه لم يشأ ان يزعجه. فحال الصبي سيئة، حتى بلا هذا...

كانت حياة الأب تقترب من النهاية...

ايتها الفأرة الزرقاء اعطنا ماء!

ايتها الفأرة الزرقاء اعطنا ماء!

كانت حياة الأب تقترب من النهاية...

ايتها الفأرة الزرقاء اعطنا ماء!

ايتها الفأرة الزرقاء اعطنا ماء!

كانت حياة الأب تقترب من النهاية...

لم يبق إلا اثنتان أو ثلاث من الذكريات العزيزة، كان يصعب عليه ان يفارقهن، ولم يكن يريد ان يرحل إلى هناك، دون ان يفكر بذلك، حتى ولو حاصره الوقت. انه يودع الذكريات وهو يفتكر دائماً ان الآوان قد آن لمغادرة القارب...

كان يحب زوجته منذ الأيام الأولى. والعجيب انه كان يفكر وهو

في البحر بما كانت تفكر به في البيت . كان هذا يحدث منذ الأيام الأولى . كانت تعرف بماذا يفكر وهو في ابحاره، وكذلك كان يعرف افكارها . هذه المعرفة عن بعد كانت سرهما، وسعادة قريهما التي لم يذقها احد .

عندما لم يكن كيريسك قد ولد بعد، ولكن كانت قد ظهرت الدلائل الأولى، التي كان يمكن ان تتأكد، أو لا تتأكد، قال لزوجته فور عودته :

- سيصبح عندنا ولد .

- اخفض صوتك، قد تسمع الارواح الشريرة - قالت هذا مرتعبة وامتلأت عيونها فرحاً - من اين لك ان تتعرف؟

- لقد فكرت انت بهذا اليوم، وانت تتمنين هذا .

- وأنت؟

- أنت تعرفين، انني اعرف بما تفكرين . وقد فكرت أنا بذلك

أيضاً .

- فكرت أنا بذلك، لأنك فكرت أنت به، ولأنك تتمناه . . .

هذا ما حدث . لقد تحقق حدسهما . لم يكن كيريسك موجوداً،

ولكنه كان سيظهر حتماً في القريب . واقترب هذا الموعد بسرعة . في

تلك الأيام كانت زوجته ترتدي سرواله الجلدي القديم، الذي أكل

الدهر عليه وشرب، والمرقع فوق الرقع برقع . وهذا - كما شرحت

هي، لكي تكون روحه المذكرة حاضرة، عندما يذهب إلى الصيد،

والا فسيكبر بشكل سيء هذا الذي سيرى النور قريباً . في تلك الأيام

كانت زوجته في سرواله الجلدي القديم أجمل النساء وأشهاهن!

أجمل النساء وأشهاهن!

كانت تلك الأيام رائعة، مقلقة وفرحة، حيث كانا يفكران بمن

سيجعل منهما اباً و أمأ . . .

لقد كان ذلك كيريسك . . .

والآن يجب الافتراق عنه وعن كل ما يتعلق به ، وإلى الأبد .
عندما كبر كيريسك ، قالت له أمه ذات مرة ، حين غضبت منه ،

ان حالها كان أحسن بكثير قبل ان يأتي .

اغاظ هذا الصبي جداً .

- وأين كنت أنا قبل ان آتي ؟

كان يلح بالسؤال على والده عندما عاد هذا من البحر .

باللمضحك وضحكا هو وزوجته بصمت ، بعيونهما

فقط . وكان امتع شيء بالنسبة لها ، انه لم يستطع ان يجيب ولم يعرف

كيف يتصرف ولا كيف يشرح للصبي اين كان ، عندما لم يكن قد اتى

بعد .

لو كان ذلك الآن لقال له الأب انه كان فيه عندما لم يكن موجوداً

في الدنيا ، انه كان في دمه وفي صلبه ، ومن هناك اندفع إلى احشاء

الأم وظهر معيداً اياه ، وانه الآن ، عندما يختفي هو نفسه ، فانه سيبقى

في ابنه ، كيما يستمر ويتكرر في ابناء ابنائه . أجل . لقال له هذا ،

ولكان سعيداً ان يقول ، قبل وفاته ، هذا . أما الآن فقد حلت نهاية كل

شيء . حياة كيريسك يمكن اطالتها في اقصى الحالات لمدة يوم أو

يومين ، ولكن ليس أكثر . الأب كان يدرك هذا جيداً ، وفي هذا كانت

تكمين المأساة الرهيبة والكارثة ، وليس في انه اضطر لمغادرة القارب

من أجل ابنه .

كان امرابين يريد كذلك ان يوحى لابنه ، قبل الفراق ، ان يظل

شاكراً ، في ما بقي له من الزمن ، للعجوز أورغان ولآكي ميلغون . لم

يعد هذان الشخصان موجودين ، وسيان لديهما ان تذكرهما أحد أم لم

يتذكرهما . ولكن يجدر التفكير بهما من أجل الذات . حتى قبل الموت بلحظة يجب - من أجل الذات - التفكير بهما . من أجل نفسك يجب ان تفكر وانت تموت ، بمثل هؤلاء الناس .

لكنه قرر ، بعد ذلك ، انه ربما يحزر ابنه ذلك بنفسه .

عندما استيقظ كيريسك استغرب انه نام ليلة ادفأ من الليالي السابقة . لقد كان مغطى بسترة والده . فتح الصبي عينيه ، ورفع رأسه - الأب ليس موجوداً في القارب . انتفض الصبي مفتشاً في القارب ، وصرخ مطلقاً زعقة حادة ، لتدوي بمرارة في هذا البحر الضبابي المقفر . وظل عويله يدوي وحيداً ، مفعماً بالأس والألم فترة طويلة . بكى بكاء رهيباً ، حتى درجة الاعياء ، وسقط بعد ذلك على قاع القارب يشهق ويضرب رأسه . هكذا كان تسديد دينه لأبائه ، الذين تحدر منهم . هكذا كان حبه وكان ألمه وراثؤه لهم . . .

استلقى الصبي في قاع القارب دون ان يرفع رأسه أو يفتح عينيه . فلم يكن هناك شيء ينظر اليه أو مكان يذهب اليه . فحوله ما زال ينسبط الضباب المبيض كالسابق ، إلا ان البحر بدأ يتحرك في هذه المرة بوجل ، هازاً ومديراً القارب في مكانه .

كان كيريسك يبكي متحسراً ولائماً نفسه لأنه غفا ، ولأنه لو لم يغف لما ترك والده ابدأ مهما كلف الأمر ، ولتمسك به بيديه واسنانه ، ولما افلته . فليموتا معاً ، وليسرعا في الموت عطشاً وجوعاً ، على الأ يبقى وحيداً وحدة مطبقة رهيبه . أنب نفسه ولاهما لأنه لم يستيقظ ، لم ينتفض ولم يصرخ ، عندما أحس في الليل فجأة باهتزاز القارب اهتزازاً عنيفاً نتيجة دفعة قوية . هل يعقل ان يترك اباه يلقي بنفسه في البحر ! أما كان يلقي بنفسه معه في هذه الهوة السوداء !

وبدا بعد ذلك ينسى نفسه تدريجياً وهو يبكي ويهتز بكل

جسمه . بعد برهة قصيرة بدأت نوبة العطش بقوة جديدة، وكأنها تعوض ما فات حين تراجعها أمام المصيبة . كان يشعر، حتى في حلمه بالضنى والألم لافتقاد الماء . لقد غلبه الظمأ . هزه الظمأ وخنقه . . . عندما زحف بشكل عشوائي تقريباً إلى البرميل اكتشف ان السدادة قد ارخيت ليصبح سحبها أسهل، وان الطاس موضوع قرب البرميل . سكب لنفسه الماء، ودون ان يفكر بشيء، شرب حتى شبع مفرجاً بهذا التصاق شفتيه وتشنجات بلعومه . اراد ان يسكب ايضاً وان يشرب ايضاً، ولكنه عدل عن ذلك، استطاع ان يكبح نفسه . الماء الباقي يكفي لشربتين تقريباً .

بعد ذلك جلس كثيراً وصار يفكر بسبب رحيل الأب دون ان يقول شيئاً . اذن الأسهل له ان يغرق مع ابيه، من ان يغرق الآن، بعد ان كبلت الوحدة والخوف يديه ورجليه، وهو خائف من تخطي حافة القارب . فقرر ان يفعل ذلك لمجرد استجماع قواه . . .

كان النهار في منتصفه، وربما أكثر من منتصفه . هذا ما بدا لكيريسك، استناداً إلى لون الضباب الفاتح . اذن فالشمس تسطع في مكان ما في قبة السماء . لكن اشعة الشمس ما كانت لتخترق ستار الضباب العظيم في جثومه فوق المحيط . كانت كثافة الضباب تقل ولونه يميل إلى الزرقة كالدخان المتصاعد من حطب يابس . ومع ذلك، لا يمكن تمييز شيء على ابعد من عشرين أو ثلاثين متراً، سوى مياه البحر القاتمة المتماوجة حوله .

لا مكان، يبحر اليه، بل انه لن يتمكن الآن من المجازيف . ونظر بمرارة إلى مجازيف والده وميلغون المستلقية بانتظام على الجانبين . القارب الآن يتحرك من تلقاء ذاته متجهاً إلى وجهة مجهولة . والوحدة

تحقيق بالصبي من كل جانب، وقد ساد حوله خوف مطبق يجمد القلب.

بعد مرور مدة من الزمن، وعند المساء، شعر برغبة لا تقاوم بالشرب. وصار رأسه يدور من الجوع والضعف. لم يشأ أن يتحرك أو ان ينظر حوله. اضافة إلى انه لا مكان ينظر اليه ولا شيء يلفت نظره. حتى الوصول إلى البرميل اصعب صعباً. زحف على ركبتيه، ثم توقف من التعب. لقد ادرك كيريسك، انه في القريب لن يستطيع الحركة، فرفع يده إلى وجهه هلعاً: لقد نحلت يده وضمرت كجلد سنجاب جاف.

في هذه المرة ارتوى اكثر مما يجب. لم يبق من الماء إلا القليل القليل، الذي يكفي لمرة واحدة، وبهذا كانت تقترب نهاية الشرب، حتى ولا قطرة واحدة. لكن الأمور بالنسبة له الآن سواء. رغم كل شيء كان يرغب بالشرب، يرغب بالشرب دون ارتواء. لقد اثلمت حدة الجوع واستقر في المعدة ألم ثقيل موجه لا يخمد. وقع كيريسك أكثر من مرة فريسة لغياب الوعي، وكان يعود وعيه من جديد. أما القارب فيسير بنفسه ويسبح في الضباب منساقاً مع التيارات.

في لحظة من اللحظات قرر جدياً ان يلقي بنفسه في البحر. ولكن قواه خارت. انتصب على ركبتيه، وانحنى على جدار القارب، وظل متدلياً بعد ان القى بيديه إلى خارج القارب، ولم تمكنه قواه من دفع جسمه من القارب، بعد ذلك ضعف لدرجة انه لم يحاول شرب ما بقي من الماء في البرميل.

استلقى في قعر القارب وهو يبكي بهدوء منادياً فأرته الزرقاء -

الساقية:

ايتها الفأرة الزرقاء اعطني ماء! . .

لكن الفأرة الزرقاء لم تظهر، بل ازدادت رغبته في الشرب .
وتذكر من جديد ذلك الصيف، عندما كان يسبح في الساقية عارياً .
لقد كان عمره اذ ذاك سبع سنوات، ليس إلا . كان الصيف في تلك
السنة قائظاً، وكان يلفح بشدة على تخوم الغابة . كانوا يجمعون هناك
الثمار البرية . ثم صاروا يستحمون . امه واختها استحمتا ايضاً . لم
تخجلا منه كثيراً . تعريتا كلتاهما وخاضتا بجزع في الساقية متلألئتين
بافخاذهما السمراء . لاصقتين كفوفهما بصدريهما . كانتا تصرخان
وتزعقان بغرابة وهما تتلألآن في الماء . وعندما جرى هو على طول
الساقية ثم قفز من الضفة إلى الماء ضحكنا منه حتى السقوط، وخاصة
امه . كانت تقول لاختها: «انظري، انظري، مثله، يشبهه، مثله
تماماً! ثم قالتا شيئاً ما، وتهامستا بخبث وهما تتضحكان بمرح . . .
والماء كان يجري في الساقية تياراً لا ينقطع كان يمكن شربه حتى
الارتواء، والاستحمام فيه مادامت توجد الرغبة .

ايتها الفأرة الزرقاء اعطني ماء! . .

خيل اليه انه من جديد، عند ذلك الجدول . وكأن صيفاً قائظاً
آخر قد حل، وهو يستحم في الجدول عارياً . ها هو يعدو على الضفة
ويقفز في التيار، ولكنه لا يشعر ببرودة سيل الماء . كان هذا ماء غير
محسوس، غير مادي . كان ضباباً . انه يستحم في الضباب . انه يحس
بالبرودة في هذا الماء . أما أمه فلا تضحك، انما تبكي . «انظري،
انظري، كم يشبهه!» تقول هذا للشخص ما وتبكي، تبكي بمرارة . . .
دموعها مالحة، تنسكب على وجنتيها . . .



استيقظ كيريسك ليلاً لشدة الاهتزاز وبسبب ضجيج الامواج

سماح القارب . صرخ الصبي بصمت . لقد رأى النجوم فوقه ! لأول مرة طرقت هذه الايام . كانت تلمع بعيداً في السماء المغشاة بالضباب ، في الغمامات ، ما بين الغيوم المحلقة فوق البحر . حتى ان القمر ظهر عدة مرات غاطساً بعد ذلك بسرعة في الغيوم .

دهش الصبي : نجوم وقمر ورياح وامواج - حياة وحركة . وبالرغم من ان الضباب لا يزال مقيماً على شكل تكتلات . وبالرغم من انه ، عندما كان القارب يقع في مثل تلك التكتلات ، كان يغرق في ظلام عميق ، فان هذا لم يكن ليديم طويلاً . كان الضباب العظيم يتحرك . لقد خرج من سالة الركود ، وانتشر يزحف في الدنيا ، تدفعه الرياح والامواج .

نظر الصبي إلى النجوم والدموع تملأ عينيه . لم تكن لديه القوة للنبض على المجاذيف ، ولم يكن يعرف كيف يجد الطريق حسب النجوم ، ومع ذلك كان مسروراً لانه يسمع ضجيج الامواج الراكضة ، لأن الريح ولأن القارب يسبح مع الامواج .

بكى من الفرح والمرارة ، بكى لأن العالم انكشف ، لأن البحر بدأ يتحرك ، ولأنه لو بقي لديه ماء للشرب وطعام ما كان بإمكانه ان يحب هذه الحياة . لكنه يقن انه لم يستطع الآن النهوض من مكانه ، وان أيامه اصبحت معدودة ، وانه سيموت قريباً من العطش .

أما القارب فكان يتحرك مع الامواج برشاقة أكبر وأكبر . كان يسبح مع التيار بلا دفة ولا مجاذيف . شرع خط الأفق بالتمييز فوق البحر بشكل غامض ، وصار الفراغ الليلي يتوضح أكثر وأكثر ، وصار الالتقاء بكتل الضباب أكثر ندرة ، والعممة التي كانت تصادف ، لم تعد تلك العممة الصماء الساحقة . وفي هذا الضباب صارت تشاهد الآن اجسام خيالية وهي تتحرك دون ضجيج . هذه الاجسام كانت تظهر

وتختفي في الريح بنفسها، مذوبة الضباب ومشتتة اياه في كل الجهات.

ما كان القمر ليطل من وراء الغيوم، حتى يتماوج وسط البحر بحوية، ويتلألأ بمرح، ليعود ويخبو من جديد، ثم يحيا ثانية. كان الطفل ينظر إلى النجوم المتألثة بصمت ويفكر: «أي النجوم هي النجوم الحامية؟ ايتها نجمة اتكيتشخ أورغان؟، وايتها نجمة آكي ميلغون؟ وايتها نجمة ابي امرايين؟. لم تظهرني طوال تلك الأيام انت ايتها النجوم - لم تستطعي رؤيتنا في الضباب. وأنا الآن وحيد لا أعرف إلى أين ابحر. لكنني لا أخاف الآن، لأنني اراكن جميعاً في السماء. غير اني لا أعرف أية نجمة منكن نجمة من. نحن لا ذنب لنا فيما وقع، اتن لم تريننا في البحر، كان الضباب العظيم يغطينا. والآن أنا وحيد. أما هم فقد رحلوا، ثلاثتهم رحلوا. كانوا يحبونكن جداً، ايتها النجوم. انتظروا طويلاً، وهم يتشوقون لرؤيتكن، كي يجدوا الطريق إلى الأرض. اتكيتشخ أورغان كان يقول ان النجوم لا تخدع ابداً. كان يريد ان يعلمني. لكن ليس ذنبكن، في ان يقع ذلك. انا سأموت قريباً أيضاً، فليس لدي ماء، وأنا خائر القوى تماماً ولا أعرف إلى أين ابحر. لم يبق لدي سوى القليل من الماء، القليل القليل، سأشربه الآن، فلم تعد لي قدرة على الاحتمال. لا طاقة لي. اليوم مضغت قطعة من الجراب الذي كان به السمك، فهو مصنوع من جلد الفقمة، لكنني لا استطيع أكثر من ذلك، فقد اصابني الغثيان وأكاد اتقيأ بسبب ذلك. سأشرب الآن آخر الماء، واذا لم يقدر لنا ان نلتقي بعد الآن، أريد ان أقول لكن، ايتها النجوم ان اتكيتشخ أورغان وآكي ميلغون وأبي امرايين كانوا يحبونكن كثيراً. . . واذا بقيت حتى الصباح فسأودعكن فيما بعد . . .»

ودخل القارب من جديد في كتلة من الضباب، وغاب كل شيء. انعدمت الرؤية من جديد لكن القارب ظل يسبح مدفوعاً بالرياح والأمواج. لقد أصبح الأمر بالنسبة لكيريسك سواء بعد ان شرب ما بقي من هذا الماء العفن تماماً، ظل مستلقياً عند اليرميل الفارغ، في المؤخرة، في ذلك المكان الذي كان يجلس فيه العجوز أورغان. استعد للموت، ولم يعد يخيفه الضباب الآن. لكنه اسف فقط لأنه لم يعد يرى النجوم، وربما لن يتمكن من وداعها. وكان حاله يزداد سوءاً على سوء.

وظل هكذا مستلقياً في شبه هذيان وشبه اغفاء. لم يعرف كم مر من الزمن. ربما تجاوز منتصف الليل، وربما اقترب الليل من نهايته. . . يصعب الحكم في ذلك. كانت العتمة الخفيفة تنبسط فوق البحر كما ينتشر الدخان مع الريح.

إذا كان القدر موجوداً فهو موجود. كان بإمكان الصبي ان يسمع وألاً يسمع، ولكنه سمع. سمع فوق رأسه ضجيج تصفيق اجنحة ترفرف وتصففر. وسمع شيئاً يطير منخفضاً فوق القارب في الظلام. فانتفض ورأى بلمحة بصر وكأن طيراً كبيراً، طيراً قوياً يضرب باجنحته العريضة.

- آغو كوك - صرخ الصبي. آغو كوك. واستطاع ان يراقب اتجاه طيران البومة القطبية، وتمكن من حفظ اتجاه الريح. كانت الريح تلفحه من اليسار، من اليسار والخلف، خلف الأذن اليسرى قليلاً.
- آغو كوك - صرخ الصبي في اثر الطير وامسك بيديه دفعة أورغان موجهاً القارب إلى حيث طارت آغو كوك.
استنفر كيريسك كل قواه وهو يتشبث بدفة القيادة. استنهض كل

طاقاته الباقية، ولم يفكر بشيء آخر. لم يذكر إلا الريح واتجاه تحليق الطير.

لم يكن معروفاً من أين وإلى أين تطير هذه البومة القطبية. من جزيرة إلى القارة أم من القارة إلى جزيرة ما. لكن كيريسك لم ينس ما قاله العجوز أورغان: هذا الطير يطير فوق البحر بخط مستقيم. انه أقوى طير، يطير في الليل والضباب. وها هو الآن يتبعه.

كان القارب ينتقل من موجة إلى أخرى. كانت الريح ثابتة، والعمّة تحتضر وتتلاشى، وبدأت حواف السماء تنير. وفي الأمام، أمامه تماماً، على منحدر السماء الأزرق القاتم كانت تشع براقه نجمة وحيدة. لاحظ كيريسك ان النجمة تقف هناك، إلى حيث وجهه هو مقدمة القارب، وادرك انه يجب ان يتمسك بها، يجب ان يتبعها وان يذهب إليها، اذ ان الآغو كوك طارت إلى تلك الجهة. لم يكن يعرف تلك النجمة، ولكنه لم يزع النظر عنها. لقد حفظ بمؤخرة رأسه تلك الريح: اتجاهها وقوتها وحدتها.

«اثبتني ايتها الريح ولا ترحلي. لا أعرف كيف اناديك. كان بإمكان الشيخ أورغان ان يدلني على ذلك. لكن كوني اختي ولا ترحلي ولا تنحرفي، ايتها الريح، إلى اتجاه آخر. فانت تستطيعين ان تثبتي طويلاً في الاتجاه الذي تشائين. ساعديني ايتها الريح ولا ترحلي. وسأعرف كيف تدعين، وسأناديك باسمك. هل تريدان ان اسميك ريح أورغان، باسم جدي أورغان؟ سأناديك هكذا دائماً ريح أورغان. وأنت ستعرفيني...» هكذا كان يتحدث مع الريح التي ترافقه، وكان يقنعها بأن تستمر مانحة اياه روحها وقوتها. ولم يزع نظره عن النجمة الدليل، التي كان يبحر نحوها. قال للنجمة: «أنا احبك يانجمتي. انك تقفين عالية بعيدة امامي. أنت أكبر وأجمل نجمة.

ارجوك لا تذهبي . قفي مكانك ، لا تنظفي . انني اسبح إليك . فباتجاهك طارت البومة أغو كوك . أنا لا أعرف إلى أين تطير ، إلى الجزيرة أم إلى القارة . حتى لو كانت تطير نحو الجزيرة ، فليكن ، سأموت على الجزيرة . لا تذهبي ، لا تنظفي ، ايتها النجمة . أنا لا أعرف كيف أدعوك فلا تغضبي علي . فليس لدي الوقت لاتعرف على اسمك . كان بإمكان ابي ان يدلني على اسمك . . . واذا رغبت سأناديك باسم ابي ، سأناديك نجمة امرايين ، وعندما ستظهرين في السماء سأحييك واهمس باسمك ، أما أنت ، فساعديني يانجمة امرايين ، ولا ترحلي قبل الآون ولا تنظفي ولا تختبي خلف الغيوم . . . »

هكذا كان يتحدث مع نجمته الدليل . كلم الامواج ايضاً :
 « ايتها الامواج ، أنت الآن تدفعين قاربي ، فانت الآن طيبة . سأناديك امواج آكي ميلغون . انت تسيرين إلى حيث طارت أغو كوك . فانت تستطيعين ان تظلي طويلاً تتدحرجين إلى حيث تشائين . لا تذهبي بالامواج آكي ميلغون ولا تغيري طريقك . لو كنت استطيع لابحرت بواسطة المجاذيف ، ولكنني خائر القوى تماماً . وانت ترين انني اسبح حسب مشيئتك . اذا بقيت حياً سأظل أذكر إلى الأبد انك تسيرين حسب ريح أورغان ونجمة امرايين ، وسأقول للجميع : آكي ميلغون في البحر شيء جيد ساعديني يا آكي ميلغون . لا ترحلي ولا تتركيني . . »



من بين النجوم كان نجم امرايين اطولها امداً . عند بزوغ الشمس كانت هي الوحيدة التي بقيت على منحدر السماء . عند بزوغ الشمس ، كانت تطفو بألق صاف قوي ، ومن ثم صارت تخمد في الفضاء الصباحي الرمادي ، وظلت مدة طويلة في السماء على شكل

بقعة بيضاء رقيقة .

هكذا حل الصباح . ثم اشرقت الشمس فوق البحر . فرح كيريسك وخاف . فرح للشمس وخاف من عدم تمكنه رؤية حدود البحر . كان البحر مقفراً اسود مشوباً بزرق ممتة تحت الشمس . الصبي ما يزال يتمسك بالدفة متوتراً ، محاولاً الابحار استناداً إلى ذاكرته ، ودون الافلات من الريح . كان هذا مرهقاً .

لقد ارهق ذاكرته لدرجة ان رأسه اصيب الدوار ، وصار كل شيء امام عينيه يسبح . . .

والآن اخذ القارب يسير حسب هواه . . .



كانت الشمس قد اصبحت عند حافة السماء الأخرى عندما عاد الصبي إلى وعيه . مط جسده وزحف معتمداً على ذراعيه المرتجفين وارتفع إلى حافة القارب ، وتجمد مطبقاً عينيه متوقفاً الدوار في رأسه . ثم فتح عينيه : القارب يسبح مع الامواج والبحر يتماوج ، كما كان ، بعدد من البقع الضوئية المتراقصة على امتداد النظر . نظر كيريسك امامه ، فرك عينيه وذهل : فمن وراء تحذب البحر الاخضر القاتم كان يسبح باتجاهه الكلب الابلق . الكلب الابلق يجري مستقبلاً! هذا الكلب الابلق العظيم!

كان الشاطيء يرى هناك عند حافة البحر على شكل خط أزرق رصاصي من الجبل . لكن الكلب الابلق ابيض الاذنين وابيض العانة كان يسمو اعلى من كل الجبال . وصار من الممكن الآن تمييز الذؤابات المتراقصة للامواج الابدية ، عند اقدام الكلب الابلق . صار من الممكن سماع اصوات نوارس الشاطيء . والنوارس كانت أول من تنبه اليه . وفوق الجبل كان يتصاعد دخان ازرق تبعثه بقايا شعلة منطفئة

على سفح الجرف . . .

ايها الكلب الابلق الراكض على حافة البحر،
انني أعود اليك وحيداً،

بلا اتكيتشخ أورغان،

بلا ابي امرايين،

بلا آكي ميلغون.

اين هم، اسألني،

ولكني اعطني، قبل ذلك، ماء لأشرب.

ايقن كيريسك ان هذه الكلمات هي كلمات بداية الاغنية التي
ستحمل اسمه، والتي سيعيش معها حتى آخر ايامه.

هدر البحر في الظلام، وتململ، مهاجماً الصخور ومتكسراً
عليها، والأرض الصخرية تتأوه بثاقل وهي تصد ضربات البحر.

ها هما منذ يوم الخليفة في تصادمهما، منذ صار النهار يتبعه
ليل، وسيظلان مستقبلاً كل الايام والليالي، مادامت الأرض والماء
موجودتان وإلى أبد الأبدين.

طوال النهارات والليالي.



. . . ومرت ليلة أخرى . . .

فوق البحر تضج ريح أورغان، وتتدحرج على سطحه امواج
آكي ميلغون وتتألق في اقصى المنحدر السماوي نجمة امرايين
المشعة.

. . . وجاء نهار جديد.

بلدة بايتيك

كانون الاول، عام ١٩٧٦ - كانون الثاني، عام ١٩٧٧

